ما لا ترونه (1)

سليم عبد القادر

كان ذلك صباح الجمعة الرابع عشر من شهر نيسان عام1979

فبينما كانت الطبيعة تعلن عن محاسنها في يومٍ من أجمل أيام الربيع ، كانت المحنة تتقدم كالإعصار يكتسح كل شيء أمامه...

كان محمود جالساً في حديقة المنزل ، يستمتع بجمال الحياة ، حين جاءه أخوه الصغير يحمل نبأً حل عليه كالصاعقة:

- ألم تعلم بالخبر؟

- أي خبر؟

- لقد داهموا بيت الغريب واحتلوه..

- من ؟

- إنه صديق صاحبك أيمن... ذو اللحية الطويلة السوداء.. الذي لا يتكلم غير اللغة الفصحى... وزوجته بلغارية.

- لم أعرفه... لا أدري.. ربما كنت أعرفه.. ولكن، من قال لك هذا؟ وهل اعتقلوا الرجل أم لا؟!

- لا أدري... يقال إنه هرب... ويقال بأنه أصيب واعتقل..

- من يقول هذا؟

- أهل الحي...

أحس بسحابة من الكآبة تغشى روحه.. قد لا يكون معنياً بالأمر مباشرة... ولكنه ليس بعيداً عنه بالمرة....

وراح يذرع حديقة المنزل ذهاباً وعودة، شارد اللب ذاهلاً عما حوله.. يفكر فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور...

وقطع عليه شروده صديق جاءه شاحب الوجه، مرتجف الكلمات، يقول:

- لقد اعتقل الأستاذ فاروق، والأستاذ عبد الله..!

- ماذا تقول؟!

هز الصديق رأسه بانكسار... تمتم متألماً : إنهما من الكبار...

\"إنا لله وإنا إليه راجعون\".

عاد إلى صمته وذهوله، ثم راح يفكر في اتجاهات شتى... لقد مر بموقف شبيه بهذا قبل ستة أعوام... لكن هذا أمر لا ينفي الصعوبة ، والإحساس بالمرارة... وإذا كانت المحنة قدراً لازماً للدعوات وأصحابها، فإنها قدر موجع ولا ريب..

* * *

عند صلاة الجمعة قصد إلى جامع عباد الرحمن، ماراً بالقرب من فرع أمن الدولة... حاملاً في صدره الهم والترقب... كان موضوع الخطبة عن المحنة.. عن حتميتها في طريق الدعوة، وعن أجر الصبر لمن صبر عليها... إنه كلام يهدئ الروح ويمنح بعض العزاء، ولكن طعم المحنة لن يكون حلواً أبداً...

خرج الناس من الصلاة، وأكثرهم من الشباب المؤمن المشتعل حماسة، الأعزل الأيدي... لقد رأى في أعينهم الإحساس بالألم والعجز.. كان الكلام يدور همهمةً بين مجموعة وأخرى.. حول موضوع واحد: بدء الاعتقالات..

* * *

في المساء، بدت المدينة امرأة تحيك ثوب الحداد...

جاءه صديقه أبو اليسر يقول بثقة مُرّة:

ستكون هذه الموجة من الاعتقالات ضارية، تستهدف تصفية العمل الإسلامي نهائياً.. المؤامرة مطبوخة داخلياً وخارجياً: داخلياً المجازر، وخارجياً التعتيم والصمت.

- والحل !؟.

- كل شيء إلاّ السجن! فهناك يصبح الموت أمنية.

- لم أكن أظن أن نشاطنا بهذه الخطورة ،إننا ندعو إلى الله بطريقة سلمية وبشكل شبه علني.

- هذا صحيح، ولكننا في غابة.

أوشك الليل أن ينتصف، والحديث يكرر نفسه، والهموم هي الهموم، والأفق أسود. ، وهمَّ أبو اليسر بالانصراف ولكنه قال :

- أخشى إن بتُّ في بيتنا أن يُداهَم الليلة.

- أستبعد ذلك.

وذهب أبو اليسر إلى بيته ثم عاد بعد قليل:

- لقد وجدت الباب مقفلاً من الداخل، ولم أرد إزعاج أهلي، فعدت لأنام عندكم.

- على الرحب والسَعة.

مضت ليلة مليئة بالوساوس والتوقعات . وفي الصباح اعتذر أبو اليسر عن تناول الفطور، وهمّ بالذهاب إلى بيته، ثم تردد:

- قلبي غير مطمئن، أخشى أن يكونوا قد داهموا البيت.

- اتصل بالهاتف.

- ربما تكون الخطوط مراقبة؟.

- لا تخف .

اتصل أبو اليسر يقول:

- (ألو) .

- نعم؟.

- أبو اليسر موجود؟.

- نعم.

وهمس لصديقه محمود: الصوت غريب!؟ وأردف على الهاتف:

- أعطني إياه لو سمحت.

- ماذا تريد منه.

- مسألة بسيطة.

- من أنت؟.

- صديق.

- ما اسمك؟.

وبحث عن أي اسم مستعار، ثم قال:

- عبد الجبار.

- ماذا تريد منه بالضبط ؟.

وحين استولى عليه الريب، أراد أن يحسمه، فقال:

- من المتكلم!؟ أبوه.

- نعم.

أغلق أبو اليسر الهاتف وقال: لقد احتلّوا بيتنا.

* * *

توالت الاعتقالات بين صفوف أبناء الجماعة وأهليهم ، وأصبحت المدينة تنام وتصحو على أخبار المخطوفين من بيوتهم ليلاً، أو من أماكن عملهم نهاراً... ما الذي يحدث يا إلهي!؟

وقال محمود لمسئوله في الجماعة:

- ما أبعاد هذه المحنة!؟

- لا أحد يعلم إلا الله.

- كيف نتصرف؟

سكت قليلاً، ثم قال:

- لا أدري.

- لا بد من موقف!.

- ننتظر أوامر القيادة.

يا إلهي... السجن يزحف نحونا جميعاً كأفعى جائعة.

* * *

ابتسم أحد الأصدقاء وهو يصغي إلى حديث محمود، ابتسامة يائسة،وقال:

- عن أي موقف تتحدث!؟.. القيادة نصفها في السجون، والنصف الآخر غادر البلاد!.

- ونحن!؟

- تحت رحمة الله.

- والحديث عن الاستعداد، والتحدي، و.....و...

- الأمر كما ترى..

- والروايات الدامية عما يدور في السجون من تعذيب شيطاني، وقلع أظافر، وسلخ جلود، وقتل، وتنكيل بالرهائن، أهي وهم أم حقيقة!؟.

- لوى الصديق شفته السفلى، وقلب راحتيه قائلاً: من يدري!؟.. ولكنها حقيقة بالتأكيد.

* * *

سألته أمه وقد رأته دائم الشرود:

- ما الأمر!؟.

أجابها:

- لا شيء..

- ما علاقتك بما يجري؟..

- لا علاقة لي بشيء..

- وأصحابك؟ لماذا يطاردون أو يسجنون؟.

- إنهم أعضاء في جماعة إسلامية...

- وأنت؟.

- لا علاقة لي بشيء...

لم تطمئن أم محمود لما سمعت، إلا أنها لم تجد إلا الصمت والدعاء..

* * *

بعد أربعة أيام، وقف محمود مذهولاً، وهو يستقبل شخصاً مجهولاً معلوماً.. كأنه لم يره قط، وكأنه لا يعرف غيره. وتبينه بعد لحظات: إنه صديقه أيمن شقيق أبي اليسر... ولكن: أين اللحية الكثة، واللباس الفضفاض!؟ لقد بدا أيمن شخصاً آخر، بعدما حلق لحيته وشاربه، وارتدى الجينز والنظارة الشمسية. تعانقا بحرارة ، وقال أيمن: خبرني عن أبي وأمي وإخوتي!؟.

صمت محمود... ولكن أيمن قطع الصمت بقوله:

- أعرف أن الأخبار لا تسر، ولكني أريد التفاصيل.

- أبوك وأخوك الكبير في السجن مع الرهائن، وأخوك أبو اليسر نجا قدراً ، وهو متوارٍ، وبيتكم محتل، ومن يطرق بابكم يعتقل حتى بائع الغاز أطلقوا عليه النار ولكنه نجا بأعجوبة.

- وأمي!؟.

- ماذا تنتظر منها وقد فقدت كل شيء في ليلة واحدة ؟ كان الله في عونها.

وخيّم صمت حزين، وكآبة قاسية، وقال أيمن ساهماً:

- أعرف ذلك كله قبل سماعه، ولكنا لن نستسلم.

-أهلك يتعرضون لما لايطيقون حمله ..!

-إنه ذنب الطغاة..

-الطغاة لاقلوب لهم ، ولا يخافون الله ..

-لذلك سنقاومهم

- والنهاية!؟.

- إحدى الحسنيين..

- إنني لا أفهم ما الذي يجري.. أنت –كما أعلم- مثلي..

قاطعه أيمن بقوله: لقد قمنا بتشكيل جناح مسلح للجماعة.

- بمعرفة الجماعة وموافقتها!؟

- ليس تماماً...

عقدت المفاجأة لسان محمود، فلم يجد كلاماً، وأطلق زفرة مفعمة بالحيرة، وعاد يسأل:

- لكن من أنتم!؟ كم عددكم !؟ ما أهدافكم!؟.

- هناك نيّة في أن نتخذ اسماً مناسباً، عددنا حوالي العشرين، سلاحنا بضعة مسدسات، وما نغنمه من العدو... هدفنا إقامة دولة الإسلام، أو الشهادة في سبيل الله.

قال محمود: أخشى أن نتورط جميعاً في عمل باهظ الثمن.

- المحنة سنة ثابتة في الدعوة.

- ولكن المطلوب أن نتحاشاها ما استطعنا، ونسأل الله العافية، فإن كتبت علينا قاومنا أو صبرنا، حسب الظروف.

- نحن لم نسع إليها... السلطة هي التي فرضت علينا المواجهة.. إنها تحارب الإسلام بشكل استفزازي..

وتابع قوله: أليس الجهاد واجباً!؟.

- بلى...

- ونحن بدأنا الجهاد... بعد عدة عمليات، سينقسم الجيش المسحوق بالتسلط.

ثم قال بلهجة حاسمة:

إن الشهادة غايتنا... يُغفر للشهيد عند أول قطرة تراق من دمه، وتتلقاه في الجنة سبعون حورية، ويشفّع بسبعين من أهله.

قال محمود بشرود:

الشهادة أمنية عزيزة المنال... أتمنّى لو متُّ شهيداً... لكنني أفكر في الواقع.. في المجتمع.. في مستقبل الإسلام هنا، في مستقبل البلد ،في صورتنا أمام الآخرين.. في عمل نستطيع تحمل تبعاته، في نية حسنة وعمل بعيد عن الأخطاء.

رد أيمن بثقة:

ليس هناك خيار آخر ... حين تتعرض الأكثرية للاضطهاد ، ويساق المجتمع المسلم ذليلاً مقهوراً في دروب الضياع والفجور، ثم لا ينهض كله، أو مجموعة منه، للتصدي للظلم والقهر، فإن هذا المجتمع يكون قد مات.. حتى لو بدت عليه ملامح الحياة الكاذبة... وحينها لا يأسف المؤمن الحر على حياة من هذا النوع...

قال أيمن كلماته في ثقة وهم بالانصراف...

سأله محمود: هل اعتقلوا الغريب؟

-تقصد أمين أصفر ؟!

-لم أكن أعرف اسمه.

-مستحيل أن يعتقلوه ... إنه رجل من طراز فريد ... وحتى لو تمكنوا منه ، فمن المستحيل أن يتم ذلك قبل أن يطيح بخمسين رجلاً منهم ، ولن يمسكوه إلا جثة هامدة ..

* * *

بعد أيام التقيا من جديد، بوجود أبي اليسر... وكان لقاءً حاراً مؤثراً بين أيمن وشقيقه أبي اليسر..

قال محمود:

الوالدة تسألني عنكما باستمرار... تريد أن تراكما..

قال أيمن :الأمر صعب جداً في هذه الظروف...

وتابع: هناك نبأ عن استشهاد خمسة من الكبار تحت التعذيب.

- نعلم ذلك..

وأردف أيمن:

نحن قررنا توسيع العمل.. الأمر خرج من مرحلة القناعات، ودخل مرحلة المواقف... أنتم وباقي الشباب معرضون للتصفية الجسدية في أقبية السجون أو على أعواد المشانق. وأعتقد أن الموت في الساحة أشرف، والسلطة ستضرب الجميع دون اهتمام بقناعتهم الفردية.

قال محمود:

أخشى أن تكون معركة غير متكافئة.. ونتيجتها معروفة: مصائب ومآس وسجون.

أيمن: ولكن الله معنا..

وأخرج مسدسين صغيرين، وضعهما على المنضدة، وقال:

يستطيع كل منكما أن يأخذ مسدساً يدافع به عن نفسه.

ابتسم محمود ، وقال: هل أواجه السلطة بهذه اللعبة!؟ أنا آسف، ثم إني لست مطلوباً، كما أني لا أنوي زجّ أهلي مع الرهائن في السجن.

* * *

راحت الأيام تمضي كالكوابيس... في كل يوم عمليات، ومطاردات، واعتقالات، ورهائن، واحتلال بيوت، وشباب تائه في دوامة لا يعرف كيف دخلها، ولا كيف يخرج منها...

ولم تهدأ موجة الاعتقالات إلاّ بعد شهر من عنفوانها، فتنفس الصعداء، واستبشر خيراً، وراح يستعد لامتحاناته في كلية الهندسة.

يتبع..

ما لا ترونه (2)

سليم عبد القادر

كان يؤدي امتحان خواص المواد، حينما اقترب منه ثلاثة رجال، ظنهم في البدء من مراقبي الامتحان، وأنهم يريدون غيره، ولكن أحدهم قال وهو يمسكه من يده: تعال معنا..

وفاجأه الموقف، فشلّ تفكيره. وقال:

- لماذا!؟.

- ولا كلمة.

- بغير سبب!؟.

- قلت لك: ولا كلمة.

- لا بأس، فهذه هي العادة دائماً.

كان الطلاب والطالبات والمراقبون يشهدون الموقف بذهول وعجز... لاأحد يرضيه ما يجري ، ولا أحد يستطيع الاعتراض. وبدا أنه لا مكان هنا للحديث عن حرمة الجامعة، أو التساؤل عن كرامة الإنسان.

في ساحة الجامعة ربضت سيارة (الأمن) وفيها ثمانية مسلحين، ما لبثت أن انطلقت بصيدها الثمين، تسابق الريح صوب سجن أمن الدولة. لم يبق في الدنيا شعور واحد لم يخالجه، ولم ترتسم آثاره في ملامحه: الخوف من أناس لا يخافون الله، الاضطراب أمام مشهد أمه وإخوته حين يصل إليهم الخبر... اللجوء إلى الله... وتشجع قليلاً فقال بصوت راعش:

هكذا أنتم دائماً، تؤدون المهمة من غير تفكير، ألا يحتمل أن يكون المعتقل بريئاً، أتحسبون أنكم غير مسؤولين أمام الله!؟.

ورد عليه صوت غليظ: اخرس يا كلب.

لاذ بالصمت، وراح يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص، والمعوذتين، والفاتحة، ويبتهل إلى الله أن يساعده في محنته، وألاّ يدعه يواجهها وحده.

* * *

انفتح باب السجن الأسود على صالة صغيرة في قبو أسفل العمارة الجميلة، القائمة أمام قصر المحافظ، كانت هذه العمارة مدرسة ثانوية للبنات قبل أعوام قليلة. ووجد أمامه رجالاً من عالم آخر: سحنات مقلوبة، وعضلات مفتولة، ودمامة مروعة، وعيون تنضح جلافة وغباء. هذا هو عالمك الجديد، وهؤلاء هم فرسانه.\"شيخو\" و\"أبو قدور\" و \"إبراهيم\" ، وغيرهم، إنهم نخبة مختارة بعناية فائقة من أشد الناس قسوة وشراسة ووضاعة، هؤلاء الأوباش الذين لا نراهم في عالمنا الحقيقي، هم سلاطين الظلام هنا!...

وجاء المصور فالتقط له بعض الصور (التذكارية) الأمامية والجانبية، وقال مدير السجن، وهو رجل أشيب أزرق العينين في الخمسين من عمره:

- اسمك!؟

- محمود..

- محمود (ايش)!؟

- محمود نعيم.

- العمل؟.

- طالب.

- أين!؟.

- في كلية الهندسة.

وصاح أحدهم: عاش بطل الكلية.

وقال مدير السجن: فتّشوه.

وفي لحظات، جردوه من حزامه وساعته ونقوده، وقال مدير السجن: خذوه.

في ممر ضيق يبتدئ من صالة الاستقبال الصغيرة، عن يمينه ثلاث زنزانات، وفي صدره زنزانة رابعة، وعن يساره المطبخ وغرفة التحقيق. دفع أبو قدور بمحمود إلى الزنزانة رقم ثلاثة. فتح قفلاً صينياً أصفر ضخماً، وبعده الباب، وقال: ادخل. وتبعه إبراهيم ببطانيتين منتنتين رماهما على الأرض وأوصد الباب، وهو يقول: الداخل مفقود، والخارج مولود... ولكنك لن تخرج من هنا إلاّ إلى القبر.

ووجد نفسه في زنزانة عارية جرداء، تتدلى من سقفها مواسير المجاري، وبحث عن نافذة فسخرت منه الجدران، وراح يذرع الزنزانة جيئة وذهاباً، ولاح له طيف أمه حزينة باكية، وصور إخوته وأصدقائه ساهمين محزونين مطرقين في حيرة، وأطلق زفرات حادة، وتلا من آيات القرآن كثيراً، ودعا ربه بقلب كسير. وجلس على الأرض مكوراً على نفسه، والوساوس تعلك أعصابه.

فتح الباب سجّان، وقال:

- قم يا كلب.

ودفعه إلى قبو وقع نظره فيه على السياط والعصي والخيزرانات والدولاب وعلبة الكهرباء والفلق، وعلى لوحة صغيرة في الصدر كُتبت عليها الآية القرآنية:

(وما ظلمناهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

وفي القبو باب يفضي إلى قبو أصغر، استقبله فيه رجلان وسيمان ممتلئان في الأربعين من عمرهما، الأول: هو الرائد أليف رئيس قسم التحقيق، والثاني: المحقق أبو مغير.

قال الرائد أليف، وهو يجلس على طرف المنضدة الوحيدة هناك، وفي يده الأولى سيكارة، وفي الثانية سبحة يعابثها: أنت تعلم يا بني أننا لم نأت بك من الشارع اعتباطاً، وإنما نتيجة اعتراف أصحابك في التنظيم، ويجب أن تعلم بأن كل شيء أصبح واضحاً لدينا، والأسرار مكشوفة، فلا فائدة من الإنكار، ولا مجال لإخفاء شيء.

استجمع محمود ما تبقى لديه من شجاعة، وقال:

- أتسمح لي بكلمات قليلة!؟.

- تكلم.

- أنا إنسان أعيش في وطني، مخلصاً له، من خلال التزامي بإسلامي، لاعتقادي بأنه الخير لي وللناس، ولذلك أدعو إلى الله بالحسنى، وأرى أن هذا من حقي كمواطن، ومن واجبي كمسلم... ومع هذا، فقد اخترت دربي بنفسي، وأنا مستعد للحوار مع أي شخص أو جهة حول ما أراه، كما أني مستعد لتحمل نتائج اختياري.

قال أبو مغير، وهو يبتسم بمكر: والتنظيم!؟ ألا تحدثنا عنه!؟.

- لا علاقة لي بأي تنظيم.

- لا فائدة من إنكار شيء ثابت.

- في حال ثبوته بالأدلة المنطقية، فأنا مستعد لدفع الثمن.

- والجماعات الإسلامية، ماذا تعرف عنها!.

- أسماءها فقط.

- والتنظيمات المسلحة!؟.

- لا أعرف عنها شيئاً.

- بل تعرف.

قطع الرائد أليف الحوار، وقال ببرود محتدم:

- لا بأس، خذ هذه الأوراق والقلم، واكتب كل ما تعرفه من معلومات، إن كنت حريصاً على كرامتك وسلامتك وهندامك، فنحن نحب أن نعاملك معاملة شباب، معاملة راقية مهذبة . وعندنا من الأساليب ما يكفي لانتزاع ما لديك من معلومات، بطرق تعرفها أو سمعت بها.

- سيدي، لعلها وشاية مغرض.

- إنه اعتراف يا(أفندي)، لدينا أطنان من التقارير تأتينا يومياً نمسح بها أحذيتنا قبل أن نقرأها. أنتم الذين تدلون على بعضكم البعض، ثم صاح: إبراهيم.

- نعم يا سيدي.

- خذه..

وجلس في الزنزانة وحيداً يفكر: ما ذا أكتب!؟ من الذي اعترف علي!؟ ماذا يعرفون عني!؟ كيف أخرج من هذه الورطة!؟ ولكني لن أعترف بشيء، ولن أذكر اسم أحد من إخواني، حتى لو مزقوني إرباً.

وأمسك الورقة والقلم وكتب:

اسمي محمود نعيم ، نشأت في ببيئة محافظة، لقنتني حب الدين، وحضور دروس العلماء، عرفت بالتدين، ولم أنتسب إلى تنظيم من التنظيمات.

بعد ربع ساعة من تسليم التقرير، فتح الباب السجان \"شيخو\" وقال:

- تعال يا حيوان.

وأوثق يديه من الخلف، وضرب على عينيه قناعاً جلدياً أسود، ودفع به إلى قبو التحقيق، وهناك رفع القناع، فرأى شيخو وإبراهيم وأبا قدور، يقفون على شكل مثلث، وكل شيء في وجوههم يؤذن بشر لا يطاق. وخلف المنضدة جلس أبو مغير يقرأ التقرير، ثم قال وهو يبتسم: إيه يا محمود، أهذا كل ما عندك !؟.

- لو كان عندي شيء آخر لقلته.

مزق أبو مغير التقرير باستهتار، وراح يعبث بأوراق أمامه.. وصاح شيخو بغضب: اخلع.

- ماذا!؟.

- ملابسك يا حيوان.

- لماذا!؟.

وانهالت عليه الصفعات واللكمات والرفسات من كل جهة، وفي كل مكان.

وخلع ملابسه من فوق، فصاح شيخو: البنطال.

- سيدي.

- ولا كلمة.. حيوان.

ومع الشتائم خلع البنطال... أحس بإهانة كبيرة. قال شيخو:

- يا سلام! سهرتنا اليوم عامرة... في الأرض يا ابن الكلب.

جلس على الأرض مذعوراً مترقباً... لقد سمع الكثير عن وسائل التعذيب وقسوة الجلادين. لكن الوضع الآن مختلف.. إنه وحده في المحرقة... شُدَّ القناع على عينيه فلم يعد يرى شيئاً، ووضعت قدماه في الفلق الذي أمسك بطرفيه إبراهيم وأبو قدور، وشدّا الحبل كأقسى ما يكون.

وصاح شيخو: هذا واحد ضعيف.

أحس بأنه مقبل على تجربة مجهولة، وهمس في نفسه: لك الحمد يا رب. مادمت قد كتبت علي المحنة، فألهمني الصبر، إنك تعلم أنه يشرفني الامتحان في سبيلك.

وبعد عشر عصي، صاح شيخو: وهذا واحد وسط. وعد عشراً، ثم صرخ: وهذا واحد قوي.

ما هذا!؟ إنه سيخ من نار، يا إلهي.

وتوالى الضرب شديداً سريعاً قاسياً، وصاح بصوت هامس: أحد... أحد...

واشتعل شيخو جنوناً، واشتد الضرب، فلم يعد أحد يعد، مائة!؟ مائتان؟ ثلاثمائة؟ ومن يهمه العدد!؟ إنها معركة، ولابد من منتصر ومنهزم فيها.

وصرخ أبو مغير: حطموه، واحذروا أن يموت.

وتحول الهمس صراخاً: يا الله. يا رب. أحد. أحد. وانقلب الصراخ إلى توسل أعمى: بريء... والله العظيم بريء... يا رب... يا سيدي... أبوس أيديكم... أبوس أرجلكم.

ومع الضرب كان يسمع:

- اعترف.

- اعترف يا ابن الكلب.

- بريء يا ابن (الفاعلة)!؟.

- يا مجرم.

- نهايتك هنا.

- أنتم تحت أقدامنا.

مضى ما يقرب من نصف الساعة، ولم يتوقف التعذيب، والجسم ما عاد يحتمل، والاعتراف مصيبة ، والله لن يتخلى عنه، ولكن إلى متى سيظل ثابتاً!؟.

وقال أبو مغير: كفى.

أحس بأنه خرج من جهنم... تنفس الصعداء... راح يلملم جراحه، وصاحوا به: قم واركض.

- لا أستطيع الوقوف.

- قم يا (قوّاد).

وتحت سيل من الرفسات والشتائم وقف يتمايل كالسكران.

- اقفز.

بدأ يقفز.

- اركض.

- لا أرى شيئاً، ارفعوا القناع عن عيني.

وبالضرب والرفس والشتائم، اقتنع بأن لا جدوى من التلكؤ، فراح يجري كالأعمى، يدور حول القبو، يرتطم بالكرسي طوراً، وبالجدار حيناً، وبالمنضدة ثالثة، ويعرقله أحدهم مرة رابعة، وسيل من الرفسات والشتائم والضحكات يطارده.

- اعترف يا حيوان.

- اعترف يا ابن الكلب.

- ستعترف اليوم أو غداً.

- يا مجرم... تريد عمل انقلاب، وسروالك مليء بالـ..(كذا)...

وصاح متوسلاً:

- إكراماً لله.

- أأنت تعرف الله يا مجرم.

- إكراماً لمحمد.

- ليأت وليخلصك.

- إكراماً للوطن.

- طظ في الوطن. أتبيعنا وطنيات!؟.

-إكراماً للسيد الرئيس.

-سنعمل ونترك في أم الرئيس ..

- اعترف.

- اعترف.

- اعترف.

وراحوا يشتمون كل ما يعتبرونه مقدساً لديه: الله، محمد، الأم، الأخت، الدين... ربما كانوا لا يعنون ما يقولون.. لكنه الواجب..

واعترضه إبراهيم، فأوقفه، وقال: دعوه يا جماعة، إنه شاب مثقف، محترم، جامعي، وسيعترف من أجل مصلحته.

- ولكني بريء.

حين فتح فاه، كان إبراهيم قد بصق فيه وقال: ابلعها يا ابن (الفاعلة).

يا إلهي. إن هؤلاء الجهلة الأنذال يتقنون مهنتهم.

بعد ربع ساعة.. قال شيخو: أعيدوه.

* * *

في الزنزانة رقم 3 وقف يصلي صلوات طويلة، ويدعو بقلب جريح وجسد منهك: يا رب، إنه عذاب لا يطاق. علمك بحالي يغني عن سؤالي. ليكن الموت، أو الشلل، أو الجنون.أما هذا التنكيل.. فلا. وراح يدعو دعاء النبي \" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ونفاد حيلتي وهواني على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى عدو سافل ملكته أمري ؟! إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن يحل عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك\"

.وبين الحين والآخر. كان يطل عليه سجان من كوة صغيرة، يتوعده ويتهدده.

- اعترف يا نذل.

- لست أبا قدور إن لم أكسر أسنانك وأنزع أظافرك.

- التحقيق لم يبدأ بعد... هذه مداعبة... ترحيب.

- أبشرك بأنك ستعيش مشلولاً..كيف!؟.غداً ترى.

- حبل المشنقة بانتظارك.

- اعترف يا ابن الحلال. أنت إنسان مثقف.

- كل الذين سبقوك اعترفوا. وأنت تمثل بطلاً، وتعمل شريفاً.

- الليلة سأفعل بك ما يدعو للاعتراف. (.....).

- لمصلحتك، اعترف، ولا تراوغ.

- يا ابن الكلب.

وقال في نفسه: أين أنا يا إلهي!؟ أمعقول أن يكون هذا الجحيم قطعة من وطني.. لم أكن أتخيل ذلك .. لا...!؟. هل هذه المخلوقات من سلالة آدم!؟ هل في الأرض قذارة كهذه!؟ ماذا صنعت لألقى كل هذا العذاب!؟.. أستغفر الله.

(واستسلم للنوم كالقتيل).

* * *

تلقت أمه أسوأ نبأ في حياتها.. إنه نبأ اعتقاله.. لقد فقدت من قبل بعض الأبناء... إن الموت أرحم... الموت إرادة الله، والسجن فعل الطغاة... الموت ساعة جزع، يتلقاها المؤمن بالرضا، فتهون... أما السجن فعذاب مستمر، وقلق دائم... لا أحد يجهل ، ولا أحد يعلم ، ما الذي يجري في السجون...إلا الله.

جلست ومن حولها أبناؤها الأربعة، وبعض الأقارب، تبكي حيناً، وتتجلد أحياناً... تأتيها الأصوات:

- اصبري... فالله موجود.

- محنة، وتمر..

- سيخرج قريباً إن شاء الله..

الآن تذكرت أبا محمود... لقد مات من أشهر... لقد راح واستراح... أحست بحاجة إلى رجل تسند ظهرها إليه.. يشاركها في حمل المصاب... ولكن.. حتى لو كان أبو محمود حياً إلى جانبها ما الذي يمكن أن يتغير!؟ إنه رجل برته الأيام، وهو صاحب قلب أرق وأرحم من قلب امرأة...

قامت أختها وأعدت الطعام، لكن أحداً لم يقترب منه... قالت لها بتودد:

- يا أم محمود... أنت امرأة مؤمنة بقضاء الله... سلمي أمورك إلى الله...

- لا إله إلا الله..

- تناولي لقيمات، حتى يقبل الأولاد على الطعام..

- لا أستطيع... لا أستطيع... ترى ماذا يفعلون به!؟.

وأجهشت بالبكاء.. وقالت بعدما هدأت:

- أخبروا أهل خطيبته بالأمر.

يتبع..

ما لا ترونه (3) و (4)

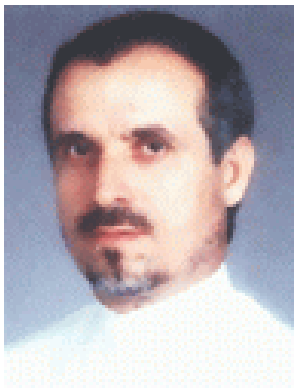

سليم عبد القادر

- 3 -

جلبة غير عادية حدثت في الصباح، وأطل الرائد أليف من الكوة فوجد محموداً مضطجعاً ينتفض وأثر النوم في عينيه، فصاح:

- كيف تركتموه ينام!؟ من الذي تركه!؟ هاتوه..

وهتف الشاب في سره:

- رحمتك يا رب.. فإنهم لا يعرفون الرحمة.

وقال أليف:

- إيه يا محمود، ماذا لديك!؟.

- سيدي...

- ألن تتكلم!؟.

- لقد قلت كل ما أعرف.

فصاح بالجلادين: اسحقوا عظامه.

وانصرف، وبدأت حفلة جديدة... ساعة تحت التعذيب.. الأقدام تورمت حتى أوشكت أن تتشقق، وتمزق الجلد فوق الكعبين بتأثير الحبل المشدود، وسال الدم، واختلط العرق بغبار الأحذية بالجسم المبتلى، وامتزجت الاستغاثات بالضحك والشتيمة، والضراعة بالسخرية، والابتهال بالعربدة.

وعاد أليف يقول:

– اعترف فلا مجال للإنكار.

– بماذا!؟.

– بأنك من الجناح المسلح.

– أثبتوا ذلك وأعدموني.

– كلكم يقول ذلك، وفي النهاية تعترفون.

وعادوا فألقوه في الزنزانة مثخن الجراح...

.. ليس حولي غير جدران صم بكم عمي... يا إلهي أكاد أُجن... الظلام يبتلع كل شيء... الوطن سجن كبير، والعالم أكبر بكثير من أن يكترث بمأساة واحد مثلي... وهنا ينطفئ الإنسان كشمعة، ينتهي كعود ثقاب، يُسحق مثل حشرة صغيرة.. هذا ظلم وكفر... أنا أعرف ذلك، وهم يعرفون، والناس خارج هذا الجحيم يعرفون... الرحمة يا إلهي، الاعتراف صعب ، لن أعترف... لن أنقذ نفسي وأفرِّط بإخواني، مستحيل أن آتي بالأبرياء إلى هذا المكان الجهنمي... ولكني يا إلهي... بدأت أخشى على إيماني.

* * *

فتح مدير السجن أبو اصطيف الكوة وقال:

– النوم ممنوع. مفهوم!؟.

– حاضر سيدي.

وحل المساء والإرهاق والنعاس. النوم ممنوع، والمقاومة تضعف وتذبل، والعزيمة تخور شيئاً فشيئاً.

في منتصف الليل أطل سجان وقال:

– ما اسمك!؟.

– محمود.

– يا أخي، لا مفر لك من الاعتراف. وكل الذين سبقوك اعترفوا.

– لا علاقة لي بتنظيم.

– أنا أكلمك كأخ، وليس كسجان. أنا مجند ولا علاقة لي بما يجري... على كل حال، لقد منعوك النوم، أليس كذلك!؟.

– بلى.

– بإمكانك أن تنام. وإياك أن تخبر أحداً بذلك، حتى لو سألوك.

– أمرك سيدي..

– لا تقل أمرك، ولا سيدي، فنحن إخوة.

– شكراً.

وتبادلا بسمات الرضا والامتنان.

أهي مناورة أم عطف!؟ ولو كانت مناورة، فماذا سيكون ثمن النوم!؟.

ونال منه الإعياء فسقط، وما أحسّ إلاّ وهم يفتحون عليه الباب في الصباح... تظاهر بأنه لم ينم. وقال أليف في القبو:

– (قوّاد)، ألن تعترف!؟.

– سيدي، أقسم بالله العظيم...

وفي لحظة واحدة، كان ملقى على الأرض مثل كيس نفايات، وبدأ مهرجان جديد، وصراخ، وعويل،وتوسل، واستغاثة، وابتهال... دون جدوى.

ياإلهي، أليس هنا إنسان!؟ لم أعد أطيق الجراح على الجراح، والضرب على جسد ممزق، وقدمين لا تطيقان المشي.

– اعترف يا حيوان، يا كلب، يا قوّاد، يا مجرم.

– بماذا!؟.

– بأنك من الجناح العسكري.

– كيف أعترف بشيء لا علاقة لي به ؟

– اضربوه.

– أبوس أيديكم وأرجلكم... حرام عليكم أن تورطوني... أنا بريء.. بريء...والله العظيم بريء.

– اضربوه بلا رحمة.

وصرخ في هلوسة وجنون:

– سيدي، والله أنا أحب الأمن.

قهقه الجميع، وتوقف "شيخو" عن الضرب قائلاً:

– ماذا قلت يا حيوان!؟.

ونزع بحذائه القناع من على عيني محمود، الذي أبصر الجلادين يتصببون عرقاً وغضباً وحنقاً، وشيخو يلهث تعباً وإرهاقاً، وأليف وأبو مغير وأبو اصطيف يكمِّلون الدائرة الصغيرة الملتفة حوله... وقال:

– أحب الأمن.

– أصادق أنت أم كاذب!؟ كن رجلاً، وإلاّ... وعادوا يقهقهون، فقال:

– أحبهم إن كانوا على الحق.

– ونحن على الباطل، أليس كذلك يا قواد!؟.

وبحذائه أعاد شيخو القناع إلى مكانه،وغشيت الظلمة كل شيء، وعاد الضرب شديداً، والشتائم والكفر والعربدة تمزق أذنيه وقلبه، وامتلأ وجهه ببصاقهم، وسال الدم من رأسه، ولم يعد يبالي بأعقاب السجائر في أي مكان من جسمه تُطفأ، ولم يعد يشعر بخزي من عريه بينهم، وتضاءل إحساسه بالحياة، وانتهت رغبته في مقاومتهم، وعاد كومة من جلد وعظم، واستبشر بالموت القريب.

صرخ أليف:

– ماذا قلت!؟.

– أريد أن أموت.

– ستموت ولكن بعد أن تعترف.

– ارحموني.

– ستظل في حال الشهوة إلى الموت.

– اقتلوني.

– في كل يوم ألف مرة... أما أن تموت مرة واحدة، فهذا لن يكون.

– لماذا!؟.

– لأنك مجرم.

– أنا!؟.

– بل نحن!؟.

– قالوها بسخرية، ثم بجد: نعم أنت يا ابن (الفاعلة).

– أنا مواطن.

– أنت خائن.

– أنا إنسان.

– أنت حشرة صغيرة.

– لا يمكن أن يرضى السيد الرئيس بهذا!!.

– اخرس، واحذر أن تردد اسمه الطاهر على لسانك النجس مرة أخرى.

– يا إلهي...

– الله بريء من المجرمين.

توقف الكلام إلاّ عن الشتائم، واستمر التعذيب، حتى شعروا جميعاً بالإعياء والتعب.

* * *

راح يتأوه في الزنزانة وحيداً، يتفقد جروحه، وقدميه، وجسمُه ممزوج بالعرق والأوساخ، ورائحته نتنه ، وفتح الكوة عليه إبراهيم يقول:

– يا أخي أنت شاب مثقف، واعٍ، فلا تضيع مستقبلك وتهدر شبابك من أجل أفكار خيالية وعمل فاشل... اعترف... اسمع نصيحتي..

ثم انصرف.

وقف يصلي ويطيل الركوع والسجود:

ياإلهي، أدركني، ما عدت أطيق العذاب، إنهم لا يجودون عليّ بالموت، ولا يفهمون لغة الإنسان...

وارتمى على الأرض بين الوعي والإغماء.

* * *

لم يمض على خروجه من قبو التحقيق ساعتان، حتى عاد شيخو يصرخ به:

– تعال.. حيوان، لي معك حساب.

وفي القبو قال له: ادخل في الدولاب.

جلس في الدولاب (إطار عجلة سيارة)، رأسه وقدماه من جهة، ومؤخرته من جهة أخرى، وبحركة من شيخو، أصبح رأسه في الأرض، وقدماه في الأعلى، وانهال عليه ضرباً وسباً حتى أدركه التعب.. وبعد ما قضى شهوته من التعذيب أعاده إلى الزنزانة.

آه... آه... عذاب فوق عذاب... لم أعد أحتمل.. يارب.. لمن أدعو سواك!؟ اليأس بدأ ينخر في عظامي، وبتُّ أخشى الفتنة في ديني... أستغفر الله... أستغفر الله... تذكر قصص عمار وبلال وخباب... ولكن هذا التعذيب لا يطاق... أين الموت!؟ أين الموت!؟ ساعدني يا إلهي. أنا ريشه في قلب إعصار. وقال شيخو:

– أنت ممنوع من الطعام. مفهوم؟.

– نعم مفهوم.

وأدركه الإعياء فارتمى على الأرض.

* * *

انخلع قلبه لصوت قفل الزنزانة وهو يفتح...، إنه أمر يتكرر مرات كل يوم، وقال أبو قدور: قم... قم يا نذل. وصاح أليف:

– محمود، أنت عنيد جداً، ولكن عنادك لن يفيدك إلاّ مزيداً من العذاب والمتاعب... ستظل في التعذيب والجوع والمنع من النوم حتى تدلي بمعلوماتك كلها.

– لقد قلت ما أعرف.

– أنت لم تقل شيئاً.

ثم صرخ بغضب:

– اطرحوه على الأرض.

– سيدي، أرجوك، بالتفاهم، بالمنطق نصل إلى كل شيء، لم أعد أطيق العذاب. اقتلوني رجاء... أرجوكم أن تقتلوني..

– لن نظلمك، ولن نقتل نفساً بغير حق.

– لقد قتلتموني ألف مرة.

– لن يفيدك هذا الكلام.

وصاح أحدهم: اخلع ملابسك.

وشدوا الحبل على قدميه، فصاح:

– يا ناس، رجلاي تتقطعان. ارحموني.

– اخرس.

– اعترف.

وراحوا يمرغون وجهه بأحذيتهم، وهو يصرخ:

– أحد... أحد... يارب أنقذني. أنت قادر.. يارب... يا سادة أبوس أيديكم، أبوس أرجلكم.

ومن غير توقع، كان يتلقى الرفسات في بطنه وعلى رأسه، والصراخ، والشماتة، والإصرار على سحقه ، بينما الكابل ينهال عليه بقسوة لا حدود لها.

– اعترف.

– لقد اعترفت.

وتعب شيخو من الضرب فاستلم أبو قدور، ثم إبراهيم، ثم عبود، ثم شيخو... وهو يتلوى تحت أقدامهم عديم الحيلة، فاقد الأمل إلاّ من رحمة الله.

واستمر الضرب عنيفاً لئيماً

– يا سيدي. ستوقفهم حين تريد.

– ماذا تقول!؟.

– أكلم الله.

– ليوقفنا إن استطاع.

واستمر التعذيب، وسأل نفسه: كيف تكون جهنم!؟.

وصاح:

– سأعترف.

– دعوه إذن...

– ماذا تريدون!؟.

رد أليف:

– التنظيم المسلح.

– أنا وأمي وأبي وإخوتي في التنظيم المسلح. هات أمضِ لك بالعشرة على هذا، وعلى الإعدام.

– إذن فأنت تلعب بنا.

– يا سيدي...

ولم يلتفت إليه أليف، ولكنه قال لشيخو:

– خذه إلى الزاوية و (.....).

وصعق وهو يسمعها كلمة منكرة قبيحة عارية في قبو (الأمن). فقال:

– إن ثبت عليّ شيء فافعلوا ما تريدون

– اضربوه.

ياإلهي... إن لم تدركني برحمتك، فأدركني بالموت أو الشلل أو الجنون... وصاح:

– ليس لديكم دليل.

رد أليف باحتقار، وقد قرر أنه قد آن الأوان كي يوجه إليه الضربة القاضية...

– اعترف عليك مجاهد وثائر.. يا حيوان.

سُقط في يده، وأيقن أنه لا مفر من الاعتراف...

– دعوني إذن، حرروا قدمي، وارفعوا القناع عن عيني.

ورأى الدنيا ظلاماً، وأليف يسلط عليه بقعة ضوء من كشاف يحمله بيده، ومن رأسه الملصوق بالأرض أبصر مجموعة من الأشباح تُحيط به بشكل مرعب.. ولم يحرك فيه المنظر شيئاً، وقام إلى المنضدة كالمجنون:

– أوقع لكم بالعشرة بأني من التنظيم المسلح.

– ومن معك؟.

– مجاهد وثائر.

– اضربوه.

– ماذا تريدون أرجوكم!؟ إن قلت إني منهم لم تتركوني، وإن قلت لا علاقة لي بهم لم تتركوني.

واستمر التعذيب: ودفع شيخو العصا في قفاه فصاح، وهدده بغيرها.

– يا سادة.. حرام.

– يا حقير، ألا تعرف شخصاً يدعى أيمن!؟.

– بلى، أعرفه.

– ماذا كان بينك وبينه!؟ احذر أن تنظم معلوماتك، فالتعذيب سيستمر حتى تقول كل شيء، وليس ما هو موجود عندنا فقط...

– سأعترف..

وفكوا وثاقه وقناعه، فانزاحت عن صدره هموم الدنيا، وتفكك داخله، فانهار، وتناثرت إرادته في المقاومة كشظايا الزجاج المهشم.

* * *

لقد انتهيتُ ياإلهي، هذه مشيئتك.

وأخذ القلم وراح يكتب اعترافاته، وأليف يبتسم وقد غمرته نشوة الانتصار.

وتلاحقت الأصوات:

– إنه شاب ممتاز.

– ووطني مخلص.

– لا تعذبوه بعد اليوم.

– لقد غلطنا معه.

– المسامح كريم.

– سيذكر كل شيء بإرادته.

– إنه طالب جامعي، مثقف، وفاهم.

– اجلس على الكرسي يا أخ.. استرح.. نحن آسفون.

– هاتوا له الماء والموز وما يطلب من طعام.

– اكتب.. اكتب يا ابن الحلال.

وبعدما كتب ما ظن بأنه يقنعهم ويخلّصه.. عرضوا عليه مجموعة من صور الملاحقين، فأنكر بعضها، وتعرف إلى البعض الآخر. ثم أعادوه إلى الزنزانة.

جلس كوعاء من فخار محطم، حاول أن يلم شمل شتاته، ويمنّي نفسه بانفراج قريب، وطعام مقبول. ولم يطل انتظاره، إذ جاؤوه بكسرة خبز يابسة، وقليل من فضلة شوربة العدس الباردة فلم يستطع الأكل، وكان يحس قبل قليل بجوع كاسر.

وقال له مدير السجن أبو اصطيف، وهو يداعبه بابتسامة حنون:

– كُلْ.. كُلْ، بالهناء والشفاء، كُلْ يا ابني، فالظاهر عليك أنك ولد طيب وابن حلال.

– شكراً سيدي.

وغاب قليلاً ثم عاد مكشراً عابساً ومعه دولاب سيارة، فقال:

– قم واحمل هذا الدولاب في رقبتك.

– لكن...

– ولا كلمة.

– لا أستطيع الوقوف.. انظر إلى قدمي وما فيهما من ورم وجروح ودم.

– في (جهنم الحمرا).. كان عليك وأنت (تفرعن) في الخارج، أن تحسب حساباً لهذه الليالي.!

يا إلهي ، كيف يلبسون الأقنعة وينزعونها !؟

حمل الدولاب في عنقه، وأحس بعجز وإعياء وغثيان من كل شيء، وراح السجّانون يتناوبون على مراقبته حتى مطلع الفجر.

– يا سيدي لقد اعترفت، فماذا تريدون بعد!؟.

– اخرس.

– اقتلوني.

– أنت تحلم.

وسمع أذان الفجر يترامى إليه عميقاً شجياً: الله أكبر... الله أكبر... أنت أكبر منهم يا الله، وهذه الحقيقة الكبيرة هي الشيء الوحيد الأقوى من جدران هذا الجحيم الداعر.

وقال للسجان إبراهيم:

– أتسمح لي بالصلاة!؟.

– طبعاً... ولو أنك سلبت راحتنا هذه الليلة... نحن لا نمنع أحداً من الصلاة.

ولم تعد رجلاه تحملانه، ودارت به الدنيا، فارتمى على الأرض جثة هامدة... رشقه إبراهيم بالماء، ونكش رأسه بحذائه، وقال: التمثيل لا ينفع هنا.

تحامل على نفسه وقام يصلّي، وشعر بغبطة وهو يتخلص من الدولاب لدقائق.. وفجأة دخل شيخو سكران يغني، فلما رآه يصلي صحا من سكره وتحول وحشاً كاسراً وصاح:

– لماذا الدولاب على الأرض!؟ من سمح له بالصلاة!؟.

وبحث عن شيء يضربه به فلم يجد، فخلع حذاءه الصفيق وجعل يصفعه به على وجهه ورأسه، ثم بصق عليه، وقال: الدولاب يا كلب.

ياإلهي... إنني أسقط في هاوية بلا قرار... لم أعد أحتمل العذاب، والانتحار جريمة... لقد مضى ثلاثة أيام، كل منها بسنة مفعمة بالعذاب والمرارة... ضرب وشتائم وجوع وإرهاق وتنكيل وحرمان من النوم وحمل الدولاب ليل نهار... وانهيار شامل يسري في كل خلية مني كالسم الناقع، وما من شعاع يلوح في هذا الجحيم القذر، والاعتراف يُدمي روحي.

* * *

رغم كثرة ما قرأ من كتب وروايات عن جحيم السجون وقسوة التعذيب ، بدءاً من قصة سحرة فرعون وأصحاب الأخدود وآل ياسر وبلال وخباب ، إلى سجون عبد الناصر وغيره ، ورغم أنه كان لا يستبعد الاعتقال كنوع من الابتلاء في سبيل الله ، إلا أنه لم يكن يتصور أن السجن يمكن أن يكون بهذه الفظاعة ، ولم يكن يتخيل أنه سيلتقي يوماً هؤلاء المحققين والجلادين ذوي الهياكل الآدمية الخاوية من القلوب والعقول والضمائر ، الذين أخذوا يتفننون ويتلذذون بتعذيبه وسحقه كحشرة حقيرة بين أقدامهم وكأنهم ملوك تلك الأقبية السوداء.

هؤلاء هم رجال الأمن ، أمن الدولة ، إنهم حماة الوطن ! ممن؟!

من الأعداء ...هل هناك أعداء للوطن في مثل قذارتهم؟!

هؤلاء الأنذال الذين لم يعتقلوا يوماً جاسوساً أصبحوا يستفردون بزهرة شباب الوطن ويذبحونهم هنا ...

آه ياوطني ..إلى أين المصير؟! آه يارب ، كم أنت صبور حليم؟!

* * *

بعد أربعة أيام كان في التحقيق موثقاً مقنع العينين، وسمع صوت الرائد أليف يحتدم غضباً:

– إذن فلن تعطينا كل ما عندك!؟ أقسم بشرفي لأسحقنّ عظامك.

– سيدي رجاء. ما عدت أطيق العذاب، ولا أنتم تصدقونني، ولم أعد أخشى على شيء غير ديني.. أعرف أنه أمر لا يهمكم، لكنه أغلى عليّ من الحياة.

– لن أصغي إليك بعد اليوم أبداً.

– حرّروا يدي وعيني، وسأقول ما تريدون.

– لن ترى وجهي..

– أرجوكم.

رفعوا القيد عن عينيه، فوجد نفسه مع جلادين وسط مجموعة من ضباط الأمن الذين يرتدون الملابس المدنية، ويبدون في أشكال بالغة الأناقة... وقد جلسوا على كراسي الخيزران في شكل نصف دائرة... لم يعرف سبباً لهذا الحضور المكثف... حتى قال أليف:

– مجرمون، قتلة، يقتلون أبناء الوطن.. وأنت الذي ستدلنا على القتلة... أنت الخيط الذي سيوصلنا إليهم..

توسل بانكسار مرعب:

– ارحموني...

– اطرحوه أرضاً.. واسحقوا عظامه.

وهجموا عليه، فانتفض، وطوق بكل يد واحداً من الجلادين.. لم يكن ذلك عن قوة في الجسم، أو رغبة في الدفاع عن النفس، بل كان لوناً من الحركات غير المفهومة التي تعبر عن اليأس. فصرخ أليف: دعوه...

وأقبل نحوه يسبّه ويصفعه بعنف وسرعة، وهو واقف كالتمثال بلا حركة، ثم صرخ به: اجلس على الأرض يا كلب.

ركض كالمجنون وجعل يضرب رأسه بالجدار ضربات قوية متلاحقة، ولكنه لم يسقط.. لم يمت... ركض نحو أليف يتوسل:

– سيدي.. ما هذه الورطة!؟ ماذا تريدون!؟ اقتلوني.. حبل المشنقة أسهل عليّ من عصا واحدة.

– اجلس يا حقير.

وجلس، وشدوا الحبل فسحق ، وجعل يصيح وقد فقد آخر ذرة عقل في رأسه. وسكت.. شهق.. ورفع رأسه إلى السماء يدعو بقلب يتفجر قهراً وضراعة ولسانه صامت: ياإلهي.. يا ربي... حتى متى يستمر هذا الامتحان!؟.

شيء ما قد حصل ... تداركته عناية الله وهو على شفير الهاوية

وقال أليف: اتركوه..

وتابع:

– لو لم تكن من الجناح المسلح لما اتصل بك أولئك المجرمون.

– لقد اتصلوا بي كما اتصلوا بغيري، لكن كأصدقاء.

– من هم!؟.

وابتلع غصة في حلقه، وقال:

– إنهم أبرياء، ولا علاقة لهم بتنظيم.

– إنهم متورطون، وأنت متورط.. اكتب أسماءهم جميعاً، وحين نشك في أنك تخفي عنا أية معلومات، مهما تكن تافهة، فسنعتبرك كذاباً، ونعيد التحقيق من البداية.

ماذا يصنع!؟ ألم ينطق عمار بن ياسر كلمة الكفر تحت التعذيب!؟ ألم يدل الغلام المؤمن على الراهب تحت التعذيب أيضاً!؟

كان يحاول أن يتلمس العزاء من تلك الصور... وكانت روحه تنتفض مذعورة كالطير الذبيح...

وعاد في الزنزانة وحيداً يحمل الدولاب في عنقه، ورأى مسمار حذاء في الأرض فحفر به على الجدار (هنا إسرائ...).

* * *

– 4 –

لقد انتهى كل شيء.. لقد اعترفت، انتهيت... سيأتون بإخوانك إلى هنا، يقاسون العذاب والمرارة والقذارة مثلما قاسيت أنت... أصحابك الذين يظنون بك خيراً، يحسبون أنك لن تعترف.. وأنت في نظرهم شيء كبير، وأنت الآن شيء تافه.. لا شيء... لكن، ماذا أصنع!؟ لكل شيء حدود، ولكل إنسان طاقة.. حتى الفولاذ ينكسر ويذوب، كان الموت أسهل عليّ. ولكن الموت لم يأت، والرحمة كلمة لا وجود لها هنا، وقد صبرت كما لم يصبر إنسان، وقد أخرت اعترافاتي سبعة أيام، وعلى أصحابي أن يدبروا أمورهم... أن يهربوا.. أو يختفوا، أو يغادروا البلد... ليس من المعقول أن أذوب قطعة قطعة، وهم يجلسون بلا حركة...ولكنهم يظنون بأني أموت ولا أعترف.. هكذا علمونا في اللقاءات السرّية

وقال له أليف: إذا تعاونت معنا فسأقف إلى جانبك، وسأذهب معك إلى العاصمة وسأضغط بوزني كله من أجل تخفيف الحكم عليك.

أجابه: حاضر.

وفي سره كان يتمنى الموت.

وفي الزنزانة وقف وحيداً ، وأخرج من جيبه قطعة نقدية صغيرة فحفر بها على الجدار بأحرف كبيرة:

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة...).

"سيذهب العذاب، ويبقى الثواب".

* * *

من كوة الزنزانة، رأى صديقه عبد الكريم معصوب العينين، وسألوه: أهذا هو!؟.

– نعم.

ونقلوه إلى زنزانة أخرى.

هذا الرجل كان مسافراً، أردت أن أقطع الخيط عنده. فمتى عاد!؟ وكيف يعود ويسترخي في بيته!؟ لقد اسود الأفق من جديد.. بماذا سيعترف!؟

وفي القبو قال له أليف:

– لم أعد أثق بكلامك أبداً، أنت تخفي الكثير، ولم تقل شيئاً حتى الآن.. ستتغير معاملتنا معك، وسترى العذاب الحقيقي.

– سيدي، اسمح لي..

– لا..

– بعض الكلمات...

– قل.

– ليرفعوا القناع عن وجهي أولاً.

– لن ترى وجهي بعد الآن.

– أريد أن أعرف كيف أكلمك.

ورفعوا القناع عن عينيه، فقال أليف:

– إياك أن تخفي شيئاً مما بينك وبين عبد الكريم...لقد اعترف هو.. نريد منك إثبات حسن نية. فأنت تكذب علينا.

– حاضر.

وجاءوا بعبد الكريم موثقاً مقنعاً وبدأوا بتعذيبه، وقال أليف: اضربه يا محمود.

أحس بأنهم يجردونه من آخر شعور إنساني، بعدما جردوه من ملابسه...

لأول مرة.. يهز رأسه بالرفض، ولكنه ظل صامتاً، لم يلحوا عليه في الطلب... إلاّ أنهم أوهموا صاحبه بأنه هو الذي يضربه. وراح الرائد أليف يصيح، والجلاد يضرب عبد الكريم:

– طيب، اضرب، يا محمود، اضربه.

* * *

بعد ساعة وقف محمود أمام أليف مرة أخرى، فقال أليف:

– أريد منك أسماء من تعرف في التنظيم؟.

– لقد كتبت.

– ستعود إلى التعذيب.

– أتريدون أسماء أبرياء؟.

– نريد كل من له علاقة بالتنظيم، أو متعاون، أو متعاطف.

كان هذا تطوراً جديداً.. يبدو أنهم يريدون الانتقام، ليس إلاّ، وأحس بأنه بحاجة إلى معجزة ليخرج من هذا المأزق... للمرة الألف يتمنى الموت... ولكن.. أين الموت!؟.

وجلس في الزنزانة يكتب.. وقلبه يبكي.

* * *

حدثت جلبة كبيرة، وترامى إليه صوت يقول: (المعلم الكبير) وبعد قليل كان في غرفة التحقيق أمام المعلم الكبير، الجالس على الكرسي خلف المنضدة، بينما يقف أليف إلى جانبه وقفة جادة... وتطلع إليه فرأى رجلاً في حوالي الأربعين من العمر، غامق البشرة، ضئيل الجسم، بالغ الأناقة، قال بصوت هادئ:

– اسمع يا محمود. أنت حتى الآن لم تعطنا شيئاً من المعلومات. ما ذكرته في اعترافاتك ليس جديداً علينا، فنحن نعرفه، ونحن لا نريد إيذاءك، ولم نصعد عمليات التعذيب معك حتى الآن، لأننا نريد لك أن تخرج إلى أهلك ووطنك ومستقبلك وأنت تحمل صورة مشرقة عن الأمن... وهذه فرصتك الذهبية، فإما أن تدلي لنا بكل ما تعلم، وأعدك، وأقسم بشرفي وعروبتي وديني وشرف السيد الرئيس، أن أفرج عنك مباشرة، وأساعدك بكل ما تريد وتحتاج، وإما أن نلجأ إلى طرق جديدة في انتزاع المعلومات.

وقال أليف:

– أفهمت كلام سيادة المقدم جيداً!؟.

– نعم.

وقال للمقدم: أتسمح لي بكلمات!؟.

– تكلم.

فقال بطريقة انتحارية مؤدبة:

– لماذا هذا التعذيب!؟ هل هو أسلوب إنساني!؟ ومهما يكن ذنب المرء، فهل يضرب بهذه الطريقة،وإلى هذا الحد!؟ احكموا عليّ بما شئتم، الموت، أو السجن المؤبد، ولكن أرجوكم أن تكفوا عن تعذيبي... هذه فتنة، وهي أشد من القتل، وليتكم تجودون بقتلي، وأنا أسامحكم، وأبرئكم أمام الله وأمام الناس... إنني لو تمكنت من الإرهابي موشيه دايان، والجزار مناحيم بيغن، أعدى أعداء الإسلام والعروبة، لما فعلت بهما نصف ما فعلتم بي... لأن هناك شيئاً اسمه إنسانية..

والتفت المقدم نحو أليف، بعدما رأى أن هذا الشاب الذي أصبح أشبه بشبح خارج من قبر، قد نال فوق ما يحتمل، وقال: لا تعذبوه بعد اليوم.

– أمرك سيدي.

وتابع المقدم:

– محمود، أنتم شباب متحمسون، مخلصون لدينكم، ونحن لا نشك بهذا أبداً، ونقدر اندفاعكم وطهارتكم. ولكن قادتكم عملاء، ولدينا وثائق ثابتة تؤكد كلامي، وسأطلعك عليها أنت بالذات.

هز رأسه مجاملة، وقال:

– حسناً.

وخرج المقدم، ودخل أبو مغير باسماً يقول:

– محمود، هذه فرصتك فلا تضيعها، لقد وعدك سيادة المقدم "علي سعد الدين"، وهو إذا وعد وفّى، لأن كل شيء بيده. وهو رئيس الفرع وكلامه فوق كلام المحافظ.

– لماذا لم يفرج عني الآن!؟.

– لأنك لم تتكلم بكل ما تعلم!.

– لقد عصرتموني كالإسفنجة،حتى لم يبق فيها قطرة ماء.

– أنت حر، وأنا أنصحك.

وجلس في الزنزانة وحيداً، وقد أعفوه من حمل الدولاب بعد عشرة أيام، وسمحوا له بالنوم... جلس يستعرض أيامه في السجن، ويذكر أهله وأصدقاءه، ويتأمل حاله ومستقبله، وهو لا يكاد يصدق شيئاً مما يجري...وهمس في ألم: لا ريب أنني في كابوس.. في حلم مزعج.. ولا يمكن أن يكون في العالم شيء من هذا!؟ مستحيل.. مستحيل... مستحيل...

وقف أمامه ضابط طويل معروق، فقال:

– سمعنا بأنك صاحب فكر..

– هذه مبالغة.

– لذلك ستكتب لنا مقالاً يدين العنف الذي يمارسه الشباب، من وجهة نظر إسلامية...

وقال أليف:

– ألست تزعم بأنك ضد العنف والتطرف!؟.

– بلى..

– إذن فاكتب، وبسرعة.. فنحن نحتاج المقال لنشره في جريدة الجمهور، موقعاً باسمك.

– سيدي...

– انتهى الأمر.

وفقد رغبته في المقاومة، إن الفكر قابل للاغتصاب أيضاً!. إنه ضد العنف والتطرف ، كما أنه ضد الظلم والاستبداد ، لكنه وهو في هذا الجحيم لايملك الإفصاح عن موقفه ...المطلوب منه إدانة العنف والسكوت عن القهر والعسف.

هز رأسه وقال: حاضر.

وقال الضابط الوسيم: أريدك أن تحشو المقال بالآيات الشريفة، والأحاديث المقدسة.. مفهوم.؟

– أمرك يا سيدي.

وفي زنزانة منفردة كالقبر، أو أقصر قليلاً، جلس مسلوب الإرادة يكتب المقال المطلوب، وقد فقد إحساسه بالوزن، وراح يتلاشى كالبخار، ويدعو الله بقلب كسير..

* * *

لم يمض إلا يومان حتى اعتقل شاب يدعى باسماً، له به صلة، فاستدعوه: هذا صاحبك باسم يذكر أشياء لم تذكرها أنت، رغم أنك تعرفها!؟. هذا يعني أنك تكذب علينا!؟ تعطينا المعلومات بالقطارة! تتسلى بنا.. سنعيد التحقيق.

وغص بالكلام... لم يعرف ماذا يقول، ولا كيف يدافع عن نفسه. الإدانة واضحة، والدفاع خاسر... وهذه قضية لن تنتهي فصولها.. ففي كل يوم يمكن أن يأتوا بمعتقل جديد، واعترافات جديدة... وإحراج جديد.. ما الحل!؟.. أن يذكر كل ما يعرف فذلك دمار لإخوانه، وأن يبقى مهدداً بإعادة التحقيق بين يوم وآخر فذلك شيء لا يحتمل. ومن قرارة يأسه قال:

– ما قاله باسم صحيح ، وأنا لم أخفه عنكم ... هي معلومات تافهة جداً، ولو أنها خطرت ببالي لكنت ذكرتها لكم.

وقال أليف: سنجعلك تتذكر حليب أمك.. وراح ينظر إليه نظرات مثقلة بالمعاني المتناقضة، ثم تابع يقول:

– أود لو أصدقك مرة واحدة...

– أنت تعلم بأني صادق.

– أنتم تعتبرون الكذب علينا قربة إلى الله.

– اعتبرني صديقاً.

– لو كان في يدك مسدس الآن لما ترددت في إطلاق النار علينا جميعاً. هذا هو الشيء الوحيد الذي أومن به.

وانفرد به مساعد فقال: لا تحاول إخفاء شيء... كل مواطن له ملف طويل عريض هنا... حتى غمضة العين التي تغمضها مسجلة لدينا.

–لم يستطع مقاومة رغبته في السخرية فقال: طبعاً.. جهاز أمن.. دولة.

وذهب، فجاء بعد دقائق مساعد آخر، في الخمسين من عمره، وقال: أين كنت يا عفريت!؟ لقد كلفت بمراقبتك قبل اعتقالك بأسبوع، فلم أقع لك على أثر!؟.

– كنت أمارس حياتي المعتادة.

– لقد راقبت المسجد الذي تصلي فيه.

– وأنا لم أنقطع عن صلاة الجماعة.

– مستحيل.. أنت كذاب.

– وكنت أجلس أحضّر دروسي وأقرأ في المسجد حتى في غير وقت الصلاة... وأحياناً كنت أنام هناك.

هز الرجل رأسه وقال: أنا حاج.. أديت فريضة الحج، وأحضر جلسات الصوفية، وأذكارهم... وأحضر مع السلفيين أحياناً... أنا مسلم.

– لعل هذه الأنشطة جزء من المهمات؟.

ابتسم وقال:

– وما المانع!؟.

وفي زنزانته المنفردة رقم 7 سمع أبا مغير يهمس: ضعوه في الغرفة التي فيها عنصرنا.

ولما نقلوه إلى الزنزانة الأولى، رأى فيها رجلين، الأول منهك من التعذيب، والثاني، يكون العنصر ولا ريب... يسب، ويشتم، وينتظر ردود الفعل منه، وماذا يفضي له به...

* * *

خارج جدران السجن كانت المدينة تلتهب... عمليات ومطاردات واغتيالات ومداهمات في كل يوم... بل إن المشكلة امتدت إلى المدن الأخرى، وأصبحت أكثر تأزماً وخطورة على الوطن كله بكل ما فيه... فهناك إصرار المجاهدين على إسقاط النظام، يقابله إصرار النظام على استئصال الجماعة بكل ألوان العنف والشراسة..

وكانت حملات الاعتقال مستمرة، والسجن يستقبل عدداً من الضيوف الجدد يومياً.

وبعد ما قضى عشرين يوماً دعوه، وقالوا له: وقّع.

– على ماذا!؟.

– على اعترافك...

وكانوا قد نسقوا اعترافاته، وأفرغوها بأسلوبهم في ملف خاص، فقال:

– أريد أن أقرأها أولاً.

– وقِّع.

وأيقن ألاّ جدوى من الاعتراض، فوقَّع، ولمح على الملف: محمود الأنصاري، تنظيم مسلح، فقال: ولكني لست من التنظيم المسلح!؟.

لم يرد عليه أحد، فقال باستهتار: هذا يعني أن حبل المشنقة بانتظاري!؟.

أجابه أليف بابتسامة ساخرة.. ومضى.

* * *

أمضت أم محمود أيامها ولياليها في الصبر والحزن، والبكاء والدعاء... كان قلبها يحوم حول ابنها... كانت تستنطق إحساسها وتقدمه على أحاديث من حولها.. قالت لأخيها:

– لابد أن نبحث عن واسطة..

– هذه قضية لا واسطة فيها.. إنها أمن الدولة..

– والحل!؟.

– أن يأتي الفرج من عند الله وحده.

– لابد أن أراه..

– لن يسمحوا لك بذلك..

– سأراه غصباً عنهم... إنه ابني... ماذا يصنع به أولئك المجرمون؟.

– اصبري، واحتسبي، وادعي له.. ولا تنسي أن الله موجود، لن يتركه وحده، ولن يتخلى عنه..

ذات يوم، اتجهت وحدها إلى فرع أمن الدولة...

قابلها أول حارس...

– نعم..

– أريد أن أقابل ابني..

– إنه ليس عندنا..

– طيب.. أريد أن أقابل رئيس الفرع.

– ممنوع.

– لماذا!؟ أريد أن أكلمه... أريد أن أسأله عن ابني.

– انقلعي، وإلاّ وضعناك بجانبه..

– ليتكم تفعلون..

– قلت لك: انقلعي...

* * *

كان أليف متكئاً على سرير في قبو التحقيق، وعلى حافة السرير يجلس ضابط آخر، وأمامهما يقف فتى في الخامسة عشرة ، بالغ الوسامة. وحين أُدخل محمود كان أليف يعبث بشاربه، ثم قال:

– أليس حراماً عليكم أن تسمموا عقول هؤلاء الفتيان؟.

رد محمود بابتسامة ساخرة، وفي وقوفه بدا متراخياً، فصرخ به شيخو:

– قف باستعداد يا حيوان، أنت أمام سيادة الرائد.

فابتسم أليف وقال: دعه يقف كما يريد.

ثم التفت إلى محمود قائلاً: إيه، ما رأيك!؟.

– إنه بريء، وأنتم تعلمون ذلك، وأعتقد بأنه كان يحضر في جلسات مفتوحة، ولا علم له بالتنظيم... وبرغم أني لا أعرفه سابقاً.. لكني أرجو، وآمل أن تطلقوا سراحه.

وقال الضابط الآخر:

– – أتعرف عدنان سعد الدين؟

– نعم .

– هل رأيته!؟

– نعم .

– أين ؟!

– هنا .

– كيف يامجنون؟!

– لقد استدعاني منذ أيام ، وتحدث إلي.

فضحك الضابط وقال: هذا علي سعد الدين رئيس الفرع ، ولكن عدنان سعد الدين هو المراقب العام للجماعة.

–حقاً !.

–ألا تعلم ذلك!؟

–هذه أول مرة أسمع فيها باسمه ، تنظيمنا سري كما تعلم.

ضحك الضابط وقال: ولكنا نعلم كل شيء.

وقاده أليف إلى غرفة التحقيق ، فقال: اجلس على الكرسي .

وطلب له كأس شاي ، فوجدها لذيذة جداً بعد شهر من الهجران القسري ، فطلب واحدة أخرى ، فجاؤوه بها ، فطلب ألا يقطعوها عنه فوعدوه بذلك ، ولكنهم لم يفعلوا.

وقال أليف:إيه، حدثنا عن الصوفية...إنني أسمع بها ولاأعرف معناها ..

قال محمود: المعتدلون من الصوفية هم قوم أعطوا عناية كبيرة للجانب الروحي والأخلاقي ، يتميزون بالزهد والورع والشفافية والتقوى ، ولهم رياضات خاصة بهم ، وتجارب فريدة.

–والمنحرفون منهم!؟

–الانحراف لا حدود له.

–والسلفية!؟

–المعتدلون منهم يغلب عليهم الطابع العلمي ، والتدقيق والتمحيص ، والاهتمام بصحيح السنة.

قال أليف وهو يبتسم: والانحراف لا حدود له .حسناً، والإخوان!

تطلع محمود حوله فرأى كل جلاد يحمل (سلاحه)بيده ، ووعيده في نظراته ..فقال: إذا كنت تريد حواراً بين رجلين فأنا مستعد ، وسأقول رأيي بصراحة ، إذا أعطيتني الأمان ... أما أن يكون حوار بيني وبين السياط ، فسأقول ما تحبون سماعه.

قال أليف وهو يضحك: حسناً ، لك الأمان.

فقال محمود: الإخوان –في رأيي– أفضل الجماعات الإسلامية فهماً للإسلام والواقع ، ودعوة إلى الله ، وأكثر الجماعات نضجاً وجاذبية ، لذلك التزمت بالجماعة ، رغم ما في طريقها من عقبات ومخاطر.

قال أليف ساخراً : أستاذك عبد الله لايشرب كأسه إلا مع الشاعرة هند موسى ، وأستاذك (.....) من قوم لوط

لم يكترث لما سمع ، وقال:

–إذا أردت فكر الإخوان ، فهو واضح في كتبهم التي تملأ الأسواق ، وأنا مستعد للحوار مع أي إنسان حوله ...وإذا أردت أشخاصهم، فهم يتمثلون عندي بحسن البنا وسيد قطب والمودودي...ولاأحد يقدر أن يطعن بواحد من هؤلاء.

–والشيخ أحمد حسن!؟

–إنه منكم.

–كيف؟

–رجل أمن .. معروف باتصاله بكم.

–ولكنه يسبنا على المنبر ...!؟

-تنفيس ... مثل (غوار الطوشة).

-(غوار الطوشة) للتنفيس ، نعم ، أما هذا فلا.

-وتردده على الفرع !؟

-نحن نستدعيه أحياناً ، حين يشتد في نقده ، لنفرك له أذنه .. ويقول الرجل: أنا أنتقد أشياء موجودة ، أزيلوها لأكف عن نقدها.

وانتقل الحديث عن السياسة ، فقال محمود:

-وعبد الناصر ! ما رأيك فيه؟!

-كان زعيماً عربياً كبيراً ...ولكنه كان بلا فكر.

وتابع وهو يضحك : رأيكم فيه معروف.

ثم أخذ الرائد مظهر الجد وقال: أريد منك جواباً حاسماً .. لماذا تلجؤون إلى التنظيم السري؟!

-لأنكم لا تسمحون لنا بالتنظيم العلني.

قال أليف: خذوه.

انتهز محمود المناسبة وقال : سؤال لو سمحت.

رد أليف: هنا نحن الذين نسأل..

-هل اعتقلتم أمين أصفر؟!

-ما شأنك أنت؟!

-أريد أن أعرف نهاية الأسطورة.

-استسلم بمنتهى السهولة.

* * *

نقلوه إلى زنزانة جماعية ، وأصبح السجن يغص بالنزلاء ، بعضهم من المطلوبين ، وبعض آخر من الرهائن أقارب المطلوبين الفارين ، وفريق ثالث كانوا من عابري السبيل في موقع جرت فيه عملية ضد دورية أمنية ، وآخرون جاءت بهم وشاية أو زلة لسان أو تشابه أسماء أو عدم حمل بطاقة الهوية أو صداقتهم لأحد المعتقلين أو المطلوبين ، وكان المحققون والجلادون يتعاملون مع كل أولئك كحشرات حقيرة لا حق لها بالاعتراض أو التساؤل عن سبب الاعتقال ، أو متى الخروج...

أما غيابهم الغامض عن أهليهم وزوجاتهم وأمهاتهم وأبنائهم وعملهم فهو أمر لا يعني أي شيء عند رجال أمن الدولة ...فمن شاء فليصبر ، ومن شاء فليمت بغيظه..

يتبع..

ما لا ترونه

(5) و(6) و(7)

سليم عبد القادر

- 5-

وقف بضعة عشر سجيناً في طابور في الممر الضيق في السجن. أكثرهم مقنع العينين، وكلهم مقيد اليدين.. إلى أين!؟... وخيّم صمت كئيب، وتوقع لمفاجأةٍ لا تسر... وسار بهم (ميكروباص) يشق ظلام منتصف الليل، وفوق ظلمة الليل كانت هناك ظلمة الأقنعة.. وطال الطريق، فأدرك السجناء أن وجهتهم نحو العاصمة... وفي منتصف الطريق رفعت الأقنعة، وبقيت القيود، وكان في السيارة ثلاثة عناصر مسلحين، ومع الموكب سيارتا مرافقة.

ألقى محمود نظرة إلى العاصمة، ساعة الشروق، كانت الطرق خالية من المشاة وازدحام المرور، فخيل إليه أن العاصمة حزينة، وأن بساتينها الغنّاء، لم تستطع التخفيف من حدة حزنها، وقابلته الشمس فانبعث في نفسه أمل يمتد بين الأرض والسماء. وقال في نفسه: إن الله لن يتخلّى عنّا... وابتسم ابتسامة لا معنى لها أمام مدخل السجن الجديد، فتلقى لسعة على رأسه بالخيزران، وقال عنصر (الاستقبال): أتضحك أيضاً!؟.

وفي ممر ضيق جلس مع بقية السجناء... تفحص الوجوه فرأى في كل منها قصة عذاب لا نهاية لها. وقال سجّان: ولا كلمة، ولا همسة، ولا حركة.. كل شيء ممنوع.

وراح يستمتع بأشعة الشمس التي لم يرها منذ شهر، فاختلج في صدره رضاً خفي، واستمتع بالفطور لأول مرة، وهو يحصل فيه على نصف كأس من الشاي، وعاد يتفحص من حوله... الوجوه البائسة، والأقدام المتورمة الدامية، والثياب القذرة، والشعور المنكوشة، وترقب المجهول المختبئ في ثنايا الساعات القادمة. انتصف النهار، واشتدت حرارة الشمس، ولكنها لم تزعجه، بل كان يتعرض لها مستزيداً من لفحها الذي افتقده طويلاً، وربما مدخراً منه للأيام المقبلة.

ولأن الصلاة ممنوعة، والوضوء ممنوع، حتى التيمم وتحريك الشفاه، فقد أدى هؤلاء السجناء صلواتهم في صمت من غير وضوء ولا تيمم.

وسيق في المساء إلى مكتب المحقق تركي، فرأى رجلاً في منتصف العقد الخامس يجلس خلف مكتب فخم، في غرفة واسعة، فاخرة الأثاث، مثلما هو بالغ الأناقة، فقال وهو يدخن السيجار: محمود، أنت ذاكر في (إضبارتك) أشياء لا بأس بها، ولكنها لا تمثل أكثر من جزء على عشرة مما لديك، فلا بد من إكمال الباقي، ونحن لا يمكن أن نتساهل معك، لأن القضية تتعلق بأمن الدولة...

أجاب وهو يكتم غيظاً قاتلاً بهدوء مصطنع:

- سيدي، إذا كانت المسألة مسألة حرق أعصاب، وتعذيب للتشفي، فماذا بوسعي أن أقول!؟... أما إذا كانت مسألة منطق وحقائق، فقد اعترفت بكل شيء.

- هل عذبوك هناك!؟.

- انظر إلى وجهي، وقدمي.

- لا، هذه دغدغة.. مداعبة... هنا نحن في العاصمة، وأساليبنا مختلفة تماماً.

وساد صمت، وذهول، قطعه النقيب بقوله: بم تفكر!؟.

- بالموت..

ضحك النقيب ضحكة طويلة، وقال: أنت متشائم جداً، ويبدو أن التحقيق أثر عليك كثيراً.

ولم يجبه بشيء، فتابع النقيب:

- حسناً، لقد قرأت ملفّك جيداً، ولاحظت انسجاماً بيننا في التفكير، لذلك، سنضعك الآن في غرفة جماعية، وهذا من مصلحتك طبعاً، لنبعدك عن الملل والوحدة، ولكنا سنعطيك أوراقاً وقلماً لتكتب كل ما تعرفه، أو تتذكره على مهل.

- سيدي أرجوك، لقد قلت كل شيء هناك، وعلى مدى أكثر من شهر، عصروني كقطعة من الإسفنج لم يبق فيها قطرة ماء.

ودخل المهجع، فوجد مجموعة من السجناء الأصدقاء... عانقهم بحرارة.. وقال أحدهم:

-سامحك الله ماذا فعلت؟!

-إنني منهار.

-لقد خربت الدنيا.

-الدنيا لم تخرب باعتقالك ...إنها خربة من زمان ، ولكني لم أكن أعلم بذلك.

-أنا لم أقصد .. لم أقصد الإساءة إليك.

-وأنا لم أتبرع بالمعلومات ..كان العذاب فوق كل احتمال ...من منكم الذي لم يعترف؟!

فلم يجبه أحد ، فتابع: من منكم لاقى ربع ما لاقيت؟! وساد صمت ، فعاد يقول:

-لم أكن أتصور أن الأمر يمكن أن يتطور إلى هذا الحد ..الندم يأكل أعصابي ، وفي قلبي نار ، وقودها شعوري بالذنب ...أنا إنسان من لحم ودم ، ولست قطعة من الفولاذ ... كنت أفضل الموت على اعتقال واحد منكم ، ولكن ، لم يكن لي خيار ..لماذا لم تختبئوا؟! لماذا لم تغادروا البلد ؟!

رد أحدهم: لم نكن نظن أن تعترف بشيء..

وساد الجو تأثر ، فقال الأول:

-إني أعتذر إليك.

وقال آخر : سامحنا فقد أسأنا إليك.

وقال ثالث: إنه قدر الله ، فلنواجه أقدارنا بشجاعة وإيمان.

وتعانقوا جميعاً...

قال محمود: هل يوجد تعذيب هنا!؟.

فأجابه أحدهم: بالنسبة للقادمين من تحقيق سابق، فلا تعذيب غالباً.

تنفس بعمق.. وقال: الحمد لله.

وتابع: وبقية الأمور!؟.

- الطعام هنا أحسن قليلاً، ومعه (دوسير)، تفاحة أو برتقالة كل يوم، ولنا ثلاث مرات نخرج فيها إلى دورة المياه والشرب في اليوم، وعلينا أن نقف جميعاً كلما فتح الباب.. البارحة تلقينا فلقاً لكل منا؛ لأننا كنا نصلي في التشهد الأخير، عندما فتح الباب فتأخرنا بضع ثوان حتى أنهينا الصلاة ووقفنا... وبالمناسبة، الوضوء ممنوع، والضوء لا يجوز إطفاؤه ليلاً أو نهاراً، وبقية الأمور معروفة: لا دفاتر، ولا أقلام، ولا كتب، ولا مصاحف، ولا راديو، ولا جريدة، وهناك انفراج في المشتريات، حيث تستطيع شراء بعض اللوازم الضرورية مثل (البيجاما)، وفرشاة الأسنان... وبدل داخلي..و..

- وماذا أيضاً!؟.

- وفقط..

- لا بأس، الخلاص من التحقيق والتعذيب، هو انتقال من الجحيم إلى النعيم... لم أعد أبالي، لو قضيت بقية عمري هنا، حتى يدركني الموت.

وقال أحدهم: لقد وقعنا في بئر عميقة.

عقَّب محمود:

- أمن المعقول أن تتصور مجموعة لا تتجاوز العشرين شاباً، أن بإمكانها الإطاحة بنظام بوليسي رهيب.

فقال ثالث: صحيح.

وعاد الأول يقول: الأمل بالله كبير.

وقال آخر: إن بقينا أحياء..

الجو خانق، وكوة صغيرة جداً، هي المنفذ الوحيد للهواء الذي يتسرب كسولاً. وروائح نتنة تنبعث من كل سجين تكفي لإفساد جو غرفة كبيرة... روائح عرق متراكم ممزوج بغبار الأرض، وأحد عشر سجيناً في قبو كالمزبلة لا يتسع لعشر دجاجات، وإحساس بالقهر والظلم والطغيان، وتساؤل عما يكنّه المستقبل المجهول الداكن، وفراغ كبير، وملل قاتل، واستسلام لقدر الله... وشهر رمضان اقترب، وهو يثير في النفوس أمواجاً من الذكريات والحنين والشفافية... وقال محمود:

- سنستغل وجود الشيخ محمد خير معنا لسماع القرآن الكريم، وتحصيل بعض العلوم الشرعية.. فهذه أفضل وسيلة للإفادة من الوقت، ومحاربة الملل... واستراح الجميع للفكرة.

كان الشيخ محمد خير في منتصف العقد الرابع، ذا شخصية طريفة متميزة، فهو ضليع في العلوم الإسلامية، دافئ المرح، عجيب الصبر والتسامح، أبيض أشقر، أزرق العينين، كث اللحية، طويلها. قال له محمود يوماً وهو يتأمله: يا سبحان الله يا شيخي!.

ابتسم الشيخ قائلاً: ماذا!؟.

- رغم أنهم قد نتفوا نصف شعر لحيتك إلاّ أنك لا تزال تذهب بشطر الحسن.

ضحك الجميع ضحكة أعلنت عن ضم أصواتهم إلى صوته، وشعر الشيخ بخجل وحياء، فاحمر وجهه، وقال: سامحك الله... ما هذا يا أخي!؟ اتق الله. فقال محمود: واتق الله أنت أيضاً، فإنك لم تترك للرجال شيئاً من الحسن يستعينون به على متاعب الحياة.

وعاد الجميع يضحكون... والشيخ يعتذر بحرج شديد. وقال محمود: أقترح أن تجعل لنا في كل يوم درسين، في الصبح وبعد العصر، في علوم الحديث، والتفسير أو الفقه...

وكان للشيخ مريد طريف طيب، يدعى عبد السلام، كان كلما شعر بدبيب الملل أو احتدام الجدل ينقذ الموقف بقوله: إذاعة القرآن الكريم من سجن (السادات) تقدم لكم ما تيسر من كتاب الله من تلاوة شيخي محمد خير..

فيقرأ الشيخ ما تيسر، حتى يجد الهدوء والراحة والسكينة مرتسمة في الوجوه.

وقال عبد الكريم: عندي كنز لا ينفد من حكايات جدتي، سأقص عليكم قصتين كل يوم، نستعين بذلك على طرد الملل، وجلب شيء من البهجة.

* * *

خرج محمود من شروده فجأة وقال:

- هل فيكم من يعرف سجيناً باسم ثائر؟..

ضحك أحد السجناء طويلاً وهزّ رأسه أن: نعم.

- اعترف عليّ.. لا أدري ماذا قال لهم!..

- لقد اعترف عليّ أنا أيضاً... اعترف بأننا تدربنا معاً على القنابل والمسدسات في أحد البساتين.. بالطبع شيء من هذا لم يحصل، ولكنه أراد أن يوقفوا التعذيب عنه..

-وهل نجا!؟.

- لا أدري..

- أيمكن أن يكون قد ذكر اسمي بين الآخرين!؟.

- بالتأكيد.

- كيف عرفت؟.

- قضيت معه ثلاثة أيام في زنزانة واحدة.

- ومن أين أتى باسمي!؟.

- إذا قابلته فاسأله!..

* * *

فتح الباب السجان، فقال عبد السلام: موعد (النزهة). وفي الطريق إلى دورة المياه استوقفهم مدير السجن، أبو رمزت، وهو طويل كالجدار، يقترب من الخمسين من عمره، فقال:

الإسلام دين الحب، والتسامح، دين الرحمة والإخاء، والأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة، وليس دين القتل وسفك الدماء واغتيال الأبرياء، يا قتلة، الويل لكم... لن يخرج أحد من هنا إلاّ إلى القبر... واقترب من محمود يقول: وأنت، سأضعك على (الخازوق).

لم يستطع أحد الرد بكلمة واحدة... رغم شعورهم جميعاً بالبراءة مما قاله.

وشعر محمود بالغثيان، وهو يشم أنفاس أبي رمزت ممتزجة برائحة الخمر... وتابع أبو رمزت:

إذا رأينا فيكم أحداً يتوضأ، فسنمنعكم من الخروج إلى دورة المياه... مفهوم!؟؟.

قال الجميع: مفهوم سيدي.

وقال عبد الكريم: لو سمحتم يا سيدي لنا بالاستحمام، فنحن لم نستحم منذ شهر ونصف، ورائحتنا أصبحت لا تطاق.

تفكر أبو رمزت ملياً، ثم قال: حسناً، تدخلون كل اثنين معاً ولمدة عشر دقائق... لا، بل سبع دقائق..

وشعروا بامتنان..

وقال السجان: فرصتكم في دورة المياه عشرون دقيقة لكم جميعاً. كالعادة.. وكانوا أحد عشر سجيناً..

قال محمود: لكل واحد أقل من دقيقتين.. ننظم الدور قبل الخروج بالأرقام.

* * *

وأصابه مغص في بطنه، ومواعيد الخروج محددة، وراح يتألم، وأحس بحرج شديد، أمعاؤه تكاد تنفجر... قرع الباب بشدة، فلم يجب أحد... ما ذا يصنع!؟

بعد ساعتين من الألم، فتحوا الباب.. ركض باتجاه دورة المياه.. لكن السجان ناداه، ووبخه، وتناوله مدير السجن أبو رمزت بصفعتين دوّى صداهما في أركان السجن... واستمرت المشكلة أياماً... وتفاعل الجميع معه، دون أن يملكوا له شيئاً إلاّ أن يمنحوه فرصتين في الخروج الواحد، فيكون هو الأول والأخير.

وفي ساقه اليسرى، كان حبل الفلق قد سحق الجلد، فظهر العظم، وانتشرت دائرة كبيرة من البثور الحمر حول الجرح، وخاف التسوس، وطلب طبيباً فنهره السجان باستهزاء وشماتة.

* * *

- 6-

إنه عصر آخر يوم من شعبان... بعد المغرب يدخل شهر رمضان.. الناس خارج السجن يحتفلون بقدوم شهر الخير...أما محمود وأصحابه فكانوا ينقلون إلى سجن آخر.

في الطريق تذكر محمود أمه وإخوته، وكلهم أصغر منه... من الذي يرعى هذه الأسرة!؟ ومن يواسيها في هذه الأيام المباركة الحزينة!؟.. إنه الله، ثم، أليست هي واحدة من مئات الأسر المنكوبة!؟.

أُنزلوا من السيارة في سجن كفر سوسة ، الواقع في أحد أطراف العاصمة، وصاح مدير السجن أبو عصام:

- فواز..

- حاضر سيدي.

- هيئ المهجع الثاني بسرعة.

- حاضر.

مهجع!؟ يالها من كلمة طريفة، هذا يعني الخلاص من الزنازن والأقبية!.. ولعلنا نجد هنا شيئاً من السكينة والطمأنينة، وأرسل طرفه في السماء، فرآها زرقاء صافية، والشمس تجنح للغروب.

وأُدخلوا إلى صالة صغيرة ، ثم أُنزلوا في سلم إلى دور أسفل، يضم مهجعين وبعض الزنزانات، وفتح باب المهجع فدخلوا جميعاً ليلقوا عدداً كبيراً من السجناء، وما إن أغلق السجان الباب، حتى انكب السجناء يعانق بعضهم بعضاً في حرارة وشعور بالأنس.

وقال أمير المهجع عادل غنوم ، وكان شاباً في الثالثة والثلاثين من عمره ، واضح التقى ، بالغ التهذيب ، ذكي العقل ، كريم النفس:

المهجع ،كما ترون، لا تزيد مساحته على عشرين متراً، له باب يفضي إلى المطبخ، وهو مطبخ صغير متواضع فيه مغسلتان وحمام صغير ودورتا مياه، نستخدم إحداهما لغسل الأطباق ...

وتابع الأستاذ عادل: أهم ما في الأمر هنا، أن المرء يستطيع قضاء حاجته متى شاء... فهل تريدون حرية أكثر من هذه!؟.

ضحك الجميع، وعلّق محمود: هذا إنجاز حضاري ضخم، يضاف إلى منجزات الحركة التصحيحية.

ولما ضحك السجناء، تابع: وما ذا يعني صعود الأمريكان إلى القمر!؟ واستمر الضحك، وعاد الأستاذ عادل يقول: نرحب باسم الإخوة جميعاً بالإخوة القادمين، ونرجو الله تعالى أن تكون أيامنا هنا قليلة، وأن نملأها بالعلم ونعمرها بالمحبة... هذا السجن كأي سجن مدني، لا تعذيب فيه ولا تحقيق، ونحن مودعون هنا بالأمانة، ولا ندري شيئاً عن مصيرنا، علاقتنا بالسجانين محدودة جداً تقتصر على تسلم وجبات الطعام فقط... المعاملة هنا أفضل بكثير من بقية الفروع، وفي كل أسبوع نكتب لهم قائمة مشتريات تشمل بعض الضروريات من سكر وشاي وصابون وكاز وما يشبه ذلك... والإنجاز الحضاري الآخر- وهو ينظر إلى محمود باسماً- أننا نستطيع تناول الشاي حين نريد.

وابتسم الحاضرون.

وقال محمود: هل لنا هنا من نافذة على العالم الخارجي؟.

أجابه عادل: كل شيء ممنوع... القلم والورق والكتاب والجريدة والقرآن والراديو... لكنا استطعنا تهريب نسختين صغيرتين من القرآن الكريم ، وجهاز راديو صغيراً جداً ، عن طريق بعض السجناء القدامى الذين يقومون بالسخرة... وهناك رسائل سرية يهربها عناصر السخرة بيننا وبين المهاجع الأخرى المليئة بالإخوان، ما عدا المهجع الأول فنزلاؤه من الشيوعيين...

- والصلاة!؟.

- بالطبع هنا لا يوجد حظر على الوضوء والصلاة، ونحن نرفع الأذان، ونصلي جماعة، ونرتل الأناشيد أحياناً، والحمد لله...

وتحول المهجع إلى خلية نحل عالية الطنين بسبب الأحاديث الثنائية والثلاثية، وراح السجناء يتفقد بعضهم بعضاً، وكلٌ يفضي ببعض ما قاساه من أيام دامية رهيبة، فيزيح عن نفسه بعض ما تراكم عليها من أثقال عاتية. وقال الأستاذ عادل لمحمود: سمعنا بأنك عانيت الكثير، فاحتسب ذلك عند الله.

قال محمود: أرجو أن يقبلني هو... وتابع بألم: كنت أتمنى أن أدفع عمري مقابل عرض حفلة واحدة من حفلات التعذيب على الناس في التلفزيون...

- الناس يعرفون الحقيقة جيداً.

وأردف عادل: لقد ظهر في المحنة رجال ذكرونا بخبّاب وبلال وعمار.

- لقد تعبت حتى أحسست مراراً بأني انتهيت.

- لن تنتهي بإذن الله.

- كان الاعتراف أكبر ما آلمني.

- الاعتراف طبيعي... وأنا أستطيع كشف أي تنظيم سري خلال أسبوع.

وبدت الدهشة في وجه محمود، فقال: ولماذا السرية إذاً!؟.

وبدا أنه لم يقتنع بجواب عادل حينما قال له: هذه طبيعة التنظيمات في ظروفنا.

* * *

بعد صلاة العشاء، سمعوا أصوات المدافع، فعلموا بدخول شهر رمضان، وتذكر كل منهم أهله وأحبابه، فقال الشيخ محمد خير:

- ليس لنا إلا الصبر والاحتساب، ومداراة العذاب بالبسمات، وانتزاع البهجة من قلب الأحزان... الآن جاء دور الإيمان... فتبادل السجناء التهنئة، وتناولوا الشاي، وقال عبد الكريم: أنا لا أصدق بأني أستمتع بكأس كبيرة من الشاي... أخشى أن أكون في حلم شاعري! فقال محمود: نحن في كابوس يا محترم.

فضحك الجميع... ثم استندوا إلى جدران المهجع، وبدأت حفلة أناشيد بقيادة المنشد عبد القادر ، الذي راح يردد:

كن مسلماً، وكفاك بين الناس فخراً
كن مسلماً، وكفاك عند الله ذخراً
فإذا حييت ملأت وجه الأرض بِشْرا
وإذا قضيت عرفت كيف تموت حرّا
* * *
أنت الربيع، فأي شيء في الحياة إذا ذَبُلتَ
أنت المضاء، فأين تنطلق الحياة إذا مللتَ
أنت الحياة، فقمْ إلى الأنحاء وانظر ما فعلتَ
كن مسلماً، لا تخش إلاّ الله حتى لو قُتلتَ

وكانت ساعة من النشوة والسمو الروحي، تجلت تصميماً في العيون، وانبساطاً في الأسارير.

* * *

أوشك الليل أن ينتصف، وحرارة الجو جعلت بعض السجناء يتحللون من قمصانهم الداخلية، وتوزع الجميع أماكن النوم في ثلاثة صفوف متداخلة متلاصقة من لحوم البشر، وأطفئت الأنوار، وتعالت من هنا وهناك بعض أصوات الشخير.

وقبيل الفجر بساعتين، راح السجناء يستيقظون تباعاً، وانهمك بعضهم بتحضير طعام السحور، ودخل الآخرون في صلاة التهجد، يستغرقون طويلاً في سجود خاشع ودعاء جريح غزير.

قال محمود للأمير عادل ، بعد أيام : حياة رتيبة، وأشواق ذبيحة، وأسئلة بلا جواب، وقلق دائم مزروع كالشوك في صدور أهلينا الذين لا يعرفون عنا شيئاً، ومستقبل غامض. والله هو عزاؤنا الوحيد في هذه المحنة.

فعقب عادل: الحياة سلسلة من الامتحانات المتواصلة، والمؤمن يتلقى قدر الله بقلب رضيٍّ وثغر باسم.

دروس الشيخ، ونشيد عبد القادر، وحكايات عبد الكريم، هي الفاكهة الوحيدة في هذه الصحراء الشرسة... وثمة نزاعات تنشب بين سجين وآخر بي الحين والحين، حول أشياء تافهة، يعقبها صلح وتسامح.

وكان الأستاذ عادل يحاول تلطيف الجو دائماً بقوله: نحن هنا أكثر من ثلاثين سجيناً، نشكل خليطاً عجيباً، فبيننا طالب الثانوية العامة، والطبيب، وابن المدينة وابن القرية، والقديم في التنظيم والحديث فيه، والرهينة الذي لا علاقة له بشيء من هذه الأمور، ولكن أخوّة الإسلام تجمعنا. ومن الطبيعي أن تكون هنا بعض المشكلات بسبب ظروفنا الصعبة القاسية ، فلنستعن عليها بحسن الخُلُق ورحابة الصدر، ونحن لسنا ملائكة على أية حال... ولا تنسوا للحظة أن الله معنا.

-7 -

بعد شهرين في المهجع الثاني ، فتح الباب سجان وصاح: نبيل..

- نعم.

- تعال.

- إلى أين!؟.

- تعال.

واضطرب الجو. فخرج نبيل، بوجه شاحب، وذهب في صحبة السجان. وجلس السجناء واجمين، فقال الشيخ محمد خير: ادعوا لأخيكم بالثبات والرحمة.

وقال الأستاذ عادل: الوقت يمر بطيئاً، ولا نعلم أين أخذوه، أو لماذا.

ولما أعادوه بعد ساعتين، هدأ القلق، وتطلع الفضول، وتكلم ثلاثون سجيناً معاً:

- خير إن شاء الله!؟.

- أين أخذوك!؟.

- لماذا!؟.

- المهم أولاً.....

وقطع اللغط الأستاذ عادل بقوله: هدوء..... هدوء يا شباب، ففي مثل هذه الفوضى لا يمكن أن نفهم شيئاً... الرجاء الكف عن الأسئلة حتى ينتهي الأخ من حديثه، ودعوه يحدثنا من البداية.

قال نبيل:

- أخذوني من هنا، لا أعرف إلى أين. خشيت من تحقيق جديد... فتشوني جيداً، وقادوني في سيارة الجيب المغلقة إلى فرع الحلبوني، ووضعوني في ساحة صغيرة مسيّجة بالأسلاك الشائكة، فانتظرت أكثر من ربع الساعة في حالة من القلق والخوف، أدخلوني غرفة المقدم.

وصاح سجين: غرفة المقدم!؟.

فامتعض الآخرون من المقاطعة، وتابع نبيل:

.. نعم، ورأيت هناك أمي وزوجتي وطفلتي الصغيرة، وسلمت عليهما، وقبلت الطفلة...

وعاودته الأطياف، فاغرورقت عيناه بالدموع، وغالب غصصاً ملأت حلقه، وساد تأثر وخشوع، وتابع: فسألوني عن صحتي..

فقاطعه أحدهم: هل حدثتهم عن التعذيب؟.

وقال آخر: هل حدثتهم عن القبو الخانق، والحر الشديد والعدد الكبير، لينقلوا الصورة إلى الشعب!؟.

وقال ثالث: رجاء يا شباب. بلا مقاطعة.

وقال رابع: فعلاً.

وقال عادل: الرجاء يا إخوة، تأجيل الأسئلة حتى يتم الأخ حديثه. وبعدها اسألوه عما تريدون.

وتابع نبيل: كانت المراقبة شديدة جداً.

فقال سجين: كمْ عنصراً كان يراقبك؟.

واعترض ثان: أف... ما هذا؟.

فتابع نبيل: راقبني ثلاثة عناصر، واستمر اللقاء حوالي ثلث الساعة.

- ثلث الساعة فقط!؟.

آخر: سبحان الله كم تحبون المقاطعة؟.

ثالث: والتعليق يزيد الطين بلّة.

رابع: فعلاً.

وتابع نبيل: ثم قالوا لنا انتهت الزيارة، فأخرجوا أهلي وأعادوني إلى هنا.

وساد اللغط، فقال عادل: الأسئلة بالدور...لنبدأ من اليمين ...تفضل أنت.

سجين: هل أعطيت أهلك رقم هاتفنا ليخبروا أهلي!؟.

نبيل: لا أعرف رقم هاتفكم.

وضحك الجميع، فقال سجين آخر: هل ذكرت لهم بأني معك هنا، حتى يخبروا أهلي؟.

نبيل: لم يكن هناك مجال لذكر أسماء.

ثالث: ما أخبار البلد، والشباب، والعمليات!؟.

نبيل: لم نستطع الحديث في هذا الموضوع.

وساد صمت ثقيل، قطعه أحد السجناء بقوله: وجودنا هنا ظلم في ظلم في ظلم...

فعقب عليه سجين آخر مازحاً: الله يفتح عليك.

ابتسم عادل وقال: اللعبة مكشوفة، السلطة أكثر الناس معرفة بعدالة دعوتنا، ولكنها –باختصار- تريد تأديب الشعب بنا.

* * *

أصبحت الزيارات هي المتنفس الوحيد للسجناء، حيث يعود أحدهم من الزيارة حاملاً شيئاً من الاطمئنان، وكثيراً من ألوان الأطعمة الشهية، وحفنة لا بأس بها من المعلومات والأخبار يتم تهريبها بوسائل أجاد السجناء اختراعها، والاتفاق على رموزها، وأكثرها يتم تهريبه في أماكن غريبة من الأطعمة، كأن تكتب على ورقة سجائر، وتوضع في ذيل البصل الأخضر.

والحق أن السجن كان صدمة قاسية، وتجربة جديدة على أولئك السجناء،حيث تعرضت حياة كل منهم إلى انقلاب جذري ومسخ تام، وزاد من قسوة الأمر تفاوت المستويات الثقافية والاجتماعية، وما ينجم عن ذلك من اختلاف في طريقة التعامل والتفاهم... وكان الشيخ محمد خير يرصد الظواهر السلبية في المهجع ويعالجها في خطبة الجمعة في المهجع نفسه، بأسلوب بالغ التأثير، فما إن تنتهي الصلاة حتى يتعانق السجناء وهم يبكون، وكأنهم يغسلون بدموعهم ما علق في صدورهم من مثالب وغبار.

* * *

حل المساء كما يحل مساء كل يوم، وكان شريط يتكرر عرضه كل مساء، بشكل أو بآخر، كلما حان موعد النوم المتفق عليه بالتصويت، وهو العاشرة ليلاً، فما إن تشير الساعة إلى ذلك الوقت، حتى يشتد الضجيج بشكل لا يستطيع فهمه أحد.

قال الأمير الأستاذ عادل: الساعة الآن العاشرة ليلاً، وقد حان وقت النوم، فالرجاء إطفاء النور.

اضطجع الجميع، وبدأت الأحاديث الجانبية همساً، ثم ما لبثت أن أصبحت ضجيجاً لا يطاق. فصاح سجين:

- أمير.. ما هذه الأحاديث الجانبية!؟. ألن يدعونا ننام!؟.

وقال ثان: هدوءاً يا شباب.

ولما لم يستجب أحد قال ثالث: ضجيجاً يا شباب.

وضج الجميع بالضحك. فقال الأمير: ما هذا يا أخ؟.

رد الثالث: لأننا كلما قلنا هدوءاً يزداد الضجيج، فقلت في نفسي نقول: ضجيجاً، عسى أن يأتي الهدوء.

وعادت موجة الضحك، فقال سجين رابع: قليلاً من الذوق يا إخوة.

رد خامس: رجاء، لا أحد يوجه الأوامر غير الأمير.

وأضاف سادس: خلّصنا يا أمير.

فقال الأمير: يا جماعة، كلنا شباب، ولا حاجة للملاحظات... وساد هدوء، ولكن أحد العفاريت أراد أن يفجر موجة من الضحك فقال:

- (إي) والله عيب.. انظروا إلى شواربكم ولحاكم ما أطولها، ومع ذلك تشاغبون كالأطفال!؟. وعاد الضحك والضجيج، وتوالى السجناء:

- عدنا إلى الضجيج.

- الحق على الأفندي، أبي الشوارب واللحى.

- بعض الناس يريدون تخفيف الضجة، فيزيدونها بملاحظاتهم.

- يا جماعة إما أن تتركونا ننام، أو أغني بأعلى صوتي طوال الليل.

وعاد الضجيج والضحك.

- طبعاً، هناك من ينام في النهار ليزعجنا في الليل.

- يا سادة، يا (أفندية)، أليس هناك اتفاق على موعد النوم!؟.

- سيدي... شعب عربي.

- قسماً بالله، لن أترك أحداً ينام بعد صلاة الصبح أو في النهار، وافعلوا ما تشاءون.

- هذه التهديدات مرفوضة يا محترم.

- لو لم نكن في السجن لكنت....

- ماذا كنت ستفعل!؟.

- صلوا على الحبيب يا جماعة.

- كفى... كفى... كفى...

- والله إن هذا لأمر مزعج جداً، أفي كل ليلة سيتكرر هذا الفيلم!؟ هذا جحيم.

- ومن أين يأتي النعيم إلى هنا!؟.

- اللعنة على حزب(.....)، سبب البلاء.

- ألف لعنة ولعنة.

- خلّها مليون لعنة، (ما دام صارت، وصارت).

- قولوا ما شاء الله من اللعنات، ودعونا ننام.

وقال الأمير: هل انتهينا!؟.

فساد هدوء طويل، ثم همس سجين لجاره:

- الحق على (زيد).

- ولكن عمراً تطاول في الكلام.

- إنه ينطلق من حقه.

- أليس هناك شيء فوق الحقوق!؟.

- صحيح، ولكن...

في تلك الأجواء ، ألف أحد السجناء قصيدة ساخرة مطلعها:

في المهجع الثاني حياتي ملأى بشتى المزعجات

* * *

بعدما تناول الجميع إفطارهم قال الشيخ محمد خير:

- يا اخوة، ما هذه الحال!؟ الناس يحسبون أننا هنا نقوم الليل ونصوم النهار، ونتعامل بأخلاق الإسلام، ونقضي أوقاتنا بالعلم والذكر والحفظ والدعاء.

قال محمود: لو أن أحداً التقط لنا شريطاً سينمائياً وعرضه علينا بعد حين؛ لضحكنا من تصرفاتنا طويلاً.

فقال عادل: أرجو ألا نبالغ في الأمر، فالجو الخانق، والإرهاق النفسي، والقلق، وضيق المكان، وسوء الأحوال، أشياء تجعل أياً منا ينفعل لأتفه الأسباب.

فقال سجين ظريف: بل من غير سبب إطلاقا.

وكان كثيراً ما يشب الخلاف حول الموقف من العمل العسكري، وجدواه، ما بين مؤيد ومعارض، ومحايد، حتى كان يوم من أواخر أيام رمضان، ألقى فيه أحد السجناء، وهو يقوم بالسخرة، ورقة صغيرة، فما إن فتحوها حتى أحدثت انفجاراً كالقنبلة، حيث قال الأمير عادل:

- لقد استشهد خمسة من إخوانكم في إحدى ليالي هذا الشهر المبارك: هم: رامز، وهمام، وعصام، وياسر، وإسماعيل.

وسرعان ما انزوى كل سجين على نفسه، وساد صمت مصحوب برهبة وخشوع، وانطلقت دموع حبيسة، وعلا نشيج مكتوم، فقال الشيخ محمد خير:

قوموا للصلاة على إخوانكم، صلاة الغائب، وادعوا الله لهم بالفردوس الأعلى، واسألوه النصر أو الشهادة. وكانت صلاة تضج بالنحيب.

* * *

وأقبل العيد! عيد في السجن!؟.

أحيا السجناء ليلة العيد بالصلاة والدعاء والذكر، وفي الصباح أدّوا صلاة العيد في قبوهم الكئيب، وخطب الشيخ محمد خير خطبة العيد.. فأبكى العيون والقلوب، وغسل الصدور، وحلّق بالأرواح، حتى علت الحناجر بالنشيج، وأحس السجناء بأنهم يعيشون في الجنة، وليس في ذلك السجن العربيد.

ولم يبق سجين لم يبك حين قال الشيخ:

ما لكم أيها الإخوة!؟ أترفضون المحنة في سبيل الله!؟ أترفضون قدر الله!؟ أترفضون ثواب الله وجنة الله!؟ هاأنتم أولاء هنا، آمنون حتى في السجن... أتستعظمون محنتكم!؟ إذن فاذكروا أخت رامز التي فقدت زوجها، وأخاها في أيام قليلة... كيف تستقبل العيد!؟ إن أهلكم لم يفقدوا الأمل بعد.

وبعد الصلاة اصطف السجناء. وعانق كل منهم أخاه عناقاً حاراً، وبكى في كل عناق، دون أن يدري سبباً للبكاء... ثم جلسوا يتنهدون، يجمعهم عالم واحد. وتبادلوا التهنئة: تقبل الله... كل عام وأنتم بخير... سامحني يا أخي...

وقام بعضهم فأخرج ما كان قد ادخر من حلوى الزيارات، فوزعها على إخوانه، وفي خشوع لا مثيل له، قال الأمير عادل: هذه هي المرة الثانية التي أدخل فيها السجن... في المرة الماضية بقيت هناك ثلاثة أعوام، ومر عليّ العيد ست مرات، واليوم، وقد صار عمري ثلاثة وثلاثين عاماً، مرّ عليّ فيها أكثر من ستين عيداً، ولكن، وأقسم بالله، لم أشعر بسعادة في عيد من الأعياد، كسعادتي في هذا العيد... لا أعرف لماذا!؟.. حقاً لقد ابتعدت عن أمي وأبي، وزوجتي وطفلتي وإخوتي... ولكني أجد فيكم عوضاً عن أسرتي... أنتم إخوتي في الله... أنتم أمي وأبي وإخوتي ومستقبلي... وبكى... فأبكى الجميع.

ما لا ترونه

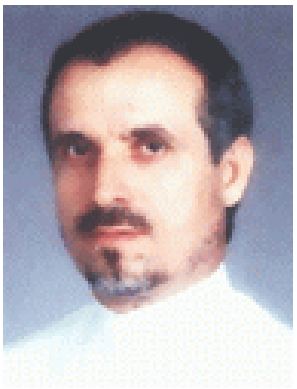

سليم عبد القادر<="" مني="" ؟؟="" (<="" بُشِّرْتَ="" بِأنَّ="" الفَجْرَ="" عَلَى="" الأَبْواب<="" ""
<";color: black ;"Simplified Arabic" :style="font-size: 14pt; font-family

-8-

مرّ شهران لا جديد فيهما غير إضافة السجينين أمين أصفر وعدنان شيخوني، وظل جو المهجع حاراً خانقاً، وكان الذي يشعر بضيق في التنفس، يذهب ليستنشق الهواء النقي في دورة المياه!.. واستيقظ السجناء ذات يوم ليجدوا أحدهم قد أغمي عليه لقلة الأكسجين وفساد الهواء، فحزنوا وغضبوا وخبطوا على باب المهجع ...

جاء السجان فواز غاضباً: ماذا تريدون؟!

رد أمين أصفر: نريد حقنا في التنفس

-لا يوجد تنفس

-هذا حقنا كسجناء

-أتظن نفسك مسجوناً في سويسرا؟

-نعم

-طظ

وصفق الباب في وجهه ، ومضى

وأضربوا عن الطعام حتى يقابلوا مدير السجن، فلما جاء، طالبوه بالخروج للتنفس مرتين كل يوم، أسوة ببقية السجناء.

وحاول أن يثنيهم عن قصدهم بالترغيب والترهيب، فرفضوا فك الإضراب، فاستجاب لطلبهم.

وفي باحة التنفس، التي لم يزد طولها على ثمانية أمتار، أحس الجميع بخدر لذيذ يتسرب فيهم، وقال محمود: ما أروع الشمس! وما أطيب الهواء النقي!.

وتفحص السجناء أجسادهم فوجدوها مليئة ببقع صفراء دائرية فتساءل أحدهم: متى تزول هذه البقع من أجسامنا!؟.

رد سجين: لقد تكونت نتيجة الضوء الأصفر، وغياب الشمس عن أجسامنا... وستزول مع الزمن.

وقال الأمير: تعالوا نقم ببعض الحركات الرياضية.

استجاب الجميع إلا واحداً ، فقد انزوى في أحد الأركان ساهماً ، اقترب منه عادل وسأله:

-لماذا لا تشاركنا في الحركة؟

-أفكر..

-متى سيكون الفرج؟

-أفكر بأهلي ، أمي وأبي وزوجتي وإخوتي ، إنهم جميعاً يتعرضون لعقاب ظالم ...لا يعرفون شيئاً عني ...إنهم يتعذبون بالقلق والانتظار..

-فوض أمرك إلى الله

-لا إله إلا الله ...وأفكر أيضاً بالفائدة التي تعودعلى هؤلاء الطغاة من حبسنا في أقبية لا تصلح زرائب للحيوان..

شده عادل من يده ، وقال:

–حاول أن تنسى ...واحتسب مصائبك عند الله ، فلا أحد يملك أن يكشف عنا وعن أهلينا الضر إلا هو.

* * *

صار الخروج إلى باحة التنفس نزهة مرتقبة، واتجه تفكير محمود للهرب من السجن عن طريق باحة التنفس، لم لا !؟ صحيح أن ارتفاع جدارها يبلغ خمسة أمتار، وفوقه متر من الأسلاك الشائكة... ولكن الإنسان لن يعدم وسيلة للتغلب على هذه الصعوبات.

وبدت له الفكرة مغرقة في الخيال، ومع ذلك، راح يناقش بها بعض أصدقائه، ووجدت الفكرة صدىً مقبولاً، ربما من قبيل مطاردة اليأس، والتعلق بأمل مهما يكن بعيداً.

وقال لعادل: هناك طريقة أخرى للهرب... صعبة، وتحتاج إلى وقت طويل، ولكنها طريقة مناسبة لقتل الملل واليأس. ابتسم عادل وهو يتصنع الاهتمام، وقال: كيف؟.

– نحفر تحت الأرض، من بين المجاري... الفكرة تبدو مضحكة، ولكني شاهدت مثلها في فيلم (الهروب الكبير).

وتابع، وهو يبتسم من جنون خياله: في الفيلم استطاع السجناء الهرب، ولكن أعيد اعتقالهم بسرعة... ومهما يكن من أمر، فعلينا ألاّ نكف عن التفكير في الهرب...

– هذا تفكير عادي لكل سجين.

– لا أحب الموت على حبل المشنقة.

– ومن يحب ذلك!؟.

– أفضل أن أموت وأنا أهرب على أن أموت على حبل المشنقة... أحب الشهادة، وأكره أن أنطفئ كعود ثقاب. كان بإمكاني تفادي الاعتقال بإجراءات ممكنة وسهلة، لكني لم أفعل.. ربما كان ذلك أكبر أخطائي... وربما لا أستطيع تفادي أثره... لكني، لم أكن أتخيل أن الأوضاع هنا على هذا الشكل من القسوة والقذارة.

– لو كنت تعلم، أكنت تفعل شيئاً؟!.

– بالتأكيد... ربما... لا أدري...

* * *

مرت ثلاثة أشهر وهم في المهجع الثاني... الأيام تكرر نفسها، والثورة تشتد في الخارج، والسلطة تبحث عن ضحايا... وجاءهم السجان فواز يقول: جهزوا أنفسكم للخروج.

– إلى أين!؟.

– لا أحد يدري.

ووجدوا أنفسهم يقادون مقيدين إلى محكمة أمن الدولة... محكمة سرية، لا يحضرها غير عناصر الأمن... وسألهم القاضي عما ورد في ملفاتهم من اعترافات، فقال الأستاذ عادل:

لقد وقعنا جميعاً على ملفاتنا دون أن تتاح لنا فرصة لقراءتها، وإن ما ورد في التقارير كان اعترافات بأمور لا أصل لها، كوسيلة وحيدة للخلاص من تعذيب جهنمي، ولا ريب أن المحققين قد ضخموا حجم الاعترافات ليثبتوا لسادتهم مدى كفاءتهم وإخلاصهم.

* * *

ناداه سجان من كوة الباب: محمود نعيم ..

– نعم.

– جهز نفسك.

– إلى أين!؟.

وغاب السجان، وخلال دقائق كان محمود جاهزاً، وبدا القلق واضحاً في وجهه ، فقال الأستاذ عادل: خير إن شاء الله.

في صالة السجن فتشوه جيداً...

أهو تحقيق جديد!؟ أم نقل إلى سجن آخر!؟ أم زيارة!؟ ولم لا!؟ ألا يمكن أن يسمحوا لأهلي بزيارتي بعد خمسة أشهر من اعتقالي!؟ لقد تمتع معظم السجناء بزيارة إلاّ أنا!.

وقال بصوت راعش: إلى أين!؟.

فلم يرد عليه أحد، ثم اقترب منه أحدهم وهمس بحذر شديد: زيارة.

فاجأته الكلمة... ابتهج، تأثر، اشتعلت في كيانه نيران أشواق حبيسة، ذكريات دامعة، شريط مضطرب لحياة حافلة بالحلو والمر، ورفع بصره، فوجد الشمس تضحك في الضحى.. بعد قليل أرى أمي... اللحظات تمضي ببطء مغيظ، الدقيقة أصبحت ساعة... ماذا أقول لأمي!؟ لا شيء، سينحبس اللسان، وتتكلم العيون، وأمرغ وجهي براحتيها، وألثم قدميها... الله وحده يعلم كم قاست وعانت وبكت وأرقت ودعت وقرأت وتأوهت وذهلت ويئست وتفاءلت... إنها أم... إنها أمي.

وفي سيارة (جيب) مغلقة ذات قفص حديدي من الداخل نقلوه إلى سجن الحلبوني ، ومن خلال الشبك المطل على (كابينة) السائق، مد بصره، فرأى الشوارع والسيارات، والمشاة والمحلات التجارية... حياة تتحرك ماضية في سبيلها لا تكترث لأحد... وشد ما تاق إلى هذه الحياة... إلى الحرية.. هؤلاء الناس يذهبون ويعودون حيث يريدون ومتى شاءوا... يزورون الحدائق والأقارب والمسجد والسينما ويمارسون

العمل أو الدراسة... لكل منهم مطامح وآمال وفي دربه عقبات وأشواك، وفي رأسه أفكار تمتد إلى اللانهاية... أما نحن!؟...

دخلت السيارة الفرع الجديد.. وقال له سجان: انزل.

وهاجت في صدره عواصف الشوق، وغمرته أمواج السعادة، وفي مكتب رئيس الفرع، التقى أمه: أمي...

وراح يقبل يديها بشغف بعد حرمان طويل... وقبلته وضمته إلى صدرها كطفل صغير، وارتمى على قدميها يريد تقبيلهما فتراجعت مذهولة مذعورة لاتدري ما تقول... وقبّل خاله، وأخاه الصغير وأخته الصغرى.

الكلام الكثير تحبسه الأشواق، والوقت قصير، والعيون تتبادل أحاديث صامتة غزيرة مبينة... وقال:

لم أزل مشغول الفكر بكم... كيف تعيشون!؟ من يرعاكم!؟ أيَّ محنة قاسية تعانونها؟.

قالت الأم: الله كبير... اهتم بنفسك أنت، ولا تنشغل بنا.. نحن بخير... نحن بخير... حضرنا إلى هنا خمس مرات ولم نستطع رؤيتك، لقد عذبونا كثيراً، المهم أننا رأيناك أخيراً... كيف حالك!؟ كيف تعيش!؟ ماذا قاسيت من هؤلاء الظلمة... لقد طرقنا كل باب من أجلك، ولكن ...

– لأنها محنة في سبيل الله، فهي تهون.

وجلس يضم أخويه إلى صدره بحنان جم، ويتلمس الخدود، ويشد على الأيدي، وكأنه يعيش حلماً جميلاً يخشى أن يفتقده في لحظة صحو.

قالت الأم وهي تشير إلى رجل بدا عليه أنه لم يتجاوز الأربعين إلا قليلاً: إنه قريبنا... الذي استطاع تأمين الزيارة، هو من عناصر الأمن كما تعلم، وهو يريد أن يتحدث إليك بأمر، لنرى رأيك فيه.

فقال الرجل: الحمد لله على سلامتك، محنة وتزول، وتعود قريباً إن شاء الله إلى أهلك.

ثم تنحنح قليلاً، وتابع:

يا سيد محمود، لعلك لا تعلم بأن أخاك قد التحق بالشباب، ونحن طلبنا من أمك أن تسلمنا إياه، أو ترشدنا إلى مكانه لاستجوابه وإطلاق سراحه فوراً، ولكنها رفضت. وطلبت مقابلتك أولاً، وقد كنت وسيطاً في الموضوع، وبسب هذا حصلنا لأهلك على أمر بالزيارة من سيادة المقدم علي، الذي وعدني وتعهد لي إن سلّم أخوك نفسه بأن لا يضربه أحد، وأقسم أن يطلق سراحه فوراً بعد استجوابه... وأنت تعلم بأن الشباب طيبون متحمسون، ولكنهم تورطوا ووقعوا في مصائد غيرهم، ولا تزال أمامهم فرصة.

نظر محمود في الوجوه التي ترقب رد فعله باهتمام، وكان رئيس الفرع يجلس بعيداً في صدر المكتب يتشاغل ببعض الأوراق أمامه، فسأل محمود : وأخي!؟ ما رأيه!؟.

قالت الأم: إنه يرفض الاستسلام.

فأخذ نفساً عميقاً، وقال: الحمد لله... ثم التفت إلى ذلك الرجل ليطلب منه طلباً استفزازياً مستحيلاً، فقال: أخرجوني من هنا لأسلمكم أخي.

ولم يكترث فيما يكون لسخريته الغضوب من أثر، وتابع الكلام وهو ينظر إلى أمه: إنهم كذابون، مراوغون، واحذروا أن يخدعوكم... لقد عانيت من جراحهم أربعة شهور بلا علاج، إنهم ألعن من الشياطين ألف مرة..

فقالت: حتى المقدم علي!؟.

أجابها بغيظ: إنه أكذب من مسيلمة الكذاب... قولي لأخي وللشباب جميعاً، ألاّ يستسلموا مهما تكن الظروف... أن يقاتلوا بالرصاص، بالسكاكين، بالعصي، بالحجارة، بالأظافر... بأي شيء... والذي يعجز عن ذلك، فليرحل خارج البلاد لينجو من هذا الجحيم الكافر.. ولو كنت أعلم بأني سألقى هنا معشار ما لقيت، لما تركتهم يستلمونني إلاّ جثة هامدة.

فقال الرجل: إذا كان الأمر كما تقول، فأنا أنسحب، وأنتم أحرار.

قال الرائد: انتهت الزيارة.

فقالت الأم: ياله من لقاء قصير، بعد فراق طويل!؟.

وكان وداع.. عناق، وقبلات، ودموع، ولا أحد يعلم إن كان هناك لقاء آخر ، أم لا.

وذهب أهله، ومن ورائهم قلبه، وقال له الرائد وقد خلا المكان:

اجلس يا محمود.

وراح يحدثه بهدوء ولطف:

– ما رأيك بالسجن!؟.

– إنه جحيم الدنيا.

ضحك الرائد، وقال: أقصد سجننا... ما الذي ترى له من مزايا، أو مثالب!؟.

– لا يوجد سجن ذو مزايا.

– والمثالب!؟.

– إنكم تمنعوننا من أبسط حقوقنا... من أشياء تافهة جداً... الورق، والأقلام، والكتاب، والجريدة، والزيارات المنتظمة، وشراء الحد الأدنى من الأطعمة كالجبن والزيت والزعتر...

– ألسنا نأتيكم بالطعام الكافي!؟.

– بصراحة.. لا، فالطعام رديء، وقليل.

– لا تنس أنك في سجن!.

– ولكننا بشر... أرواح...

– حسناً، سأبحث هذه الأمور مع مدير السجن.

– ومصادر القراءة!؟.

– هذه ممنوعة...

ثم وهو يبتسم: وأنتم مثقفون أصلاً، فما حاجتكم إليها!؟.

وقرع الجرس، فدخل الحاجب، فقال الرائد: خذه.

وبالطريقة نفسها أعادوه من حيث أتى. استقبله أصحابه بتلهف... وبدأت الأسئلة تنهال عليه من كل اتجاه:

– كيف أخذوك؟.

– هل فتشوك جيداً؟.

– من جاء لزيارتك؟.

– ما أخبار المجاهدين؟.

– هل ذكرتهم بأن يمروا بأهلي؟.

وجلس يحكي لهم بهدوء، وقد تنفس الصعداء، لأول مرة منذ نصف عام.

بعد أيام نُقل نصف السجناء في المهجع إلى سجن القلعة، ومعهم الشيخ محمد خير، والمنشد المرح الظريف عبد القادر، وترك الراحلون فراغاً كبيراً، لم يعوض عنه شيء إلا ما كسبه الباقون من خفة الزحام.

وبدأت الأمور تتحسن، وقال الأمير عادل: لقد تلاشت المشكلات من المهجع نهائياً بعدما خف الزحام الشديد، وهانحن نعيش حياة السجناء بأخلاق الملائكة.

غير أن الأمر لم يدم طويلاً، فبعد أسبوعين، تم إفراغ المهجع الثاني لمعتقلين جدد، ونقل محمود وأصحابه إلى المهجعين الخامس والسادس.

* * *

-9-

أصبح عدد السجناء في المهجعين الخامس والسادس يربو على ستين سجيناً، من بينهم المعتقلون من قيادات الجماعة، وكانت مساحة المهجع الواحد لا تزيد عن عشرين متراً مربعاً... وبالرغم من الزحام الشديد، واشتراك المهجعين في المرافق إلاّ أن الجو كان أكثر هدوءاً وانضباطاً، بسبب وجود عدد ممن تتراوح أعمارهم ما بين الأربعين والخمسين... وكان كلا المهجعين حافلاً بالأنشطة العلمية، من دروس في

الفقه والتفسير والحديث والأدب واللغات، وكانت الأوراق والدفاتر والأقلام متوفرة إلى حدٍ ما، إضافة إلى الجرائد الحكومية وبعض الكتب. مما يخفف من وطأة المعاناة الشديدة للسجناء.

ومع ذلك، فلم تخل الأجواء من خلافات تنشب بين الحين والآخر حول قضايا تافهة. وكانت تنشب بعض خلافات بين المهجعين، فكثيراً ما يدور في المهجع السادس كلام، يبدأه أحد السجناء:

– المهجع الخامس أشعلوا الموقد اليوم ساعتين زيادة على حصتهم المقررة!.

– وخنقونا برائحة البطاطا المقلية.

– ينبغي وضع حد لمثل هذه التجاوزات.

بينما يبدأ أحد سجناء المهجع الخامس هجومه بقوله:

– المهجع السادس استهلكوا معظم الماء اليوم، مع أن المياه مقطوعة!.

– إنهم يسرفون بشكل غير مقبول!.

– طبعاً –يا سيدي– فالشباب أكابر!

– سبحان الله، ألا يفكرون بغيرهم؟.

– وقد شغلوا الحمام طوال اليوم ولم يتركوا لنا دوراً!.

– لا يمكن السكوت عن هذه الأوضاع إلى ما لا نهاية!.

وقال محمود للأستاذ عادل:

– بالرغم من تحسن الأوضاع هنا، عما كانت عليه في المهجع الثاني، إلاّ أن الكثير من المشكلات والمثالب والمنازعات لم تختف تماماً.

– نحن في سجن.

– ولكننا إخوان!؟.

– والإخوان بشر.

* * *

مما أثار استغراب محمود، ما علمه فيما بعد، بأن أعضاء القيادة لم يتعرضوا لأي تعذيب جسدي، حتى إن بعضهم لم يخضع لتحقيق.. فقال لعادل:

– ألا تستغرب هذه الظاهرة؟.

– نوعا ما.

– كيف!؟.

– لعل السلطة لم تكن مهتمة في البدء بأكثر من اعتقال القيادة، ظناً منها بأن ذلك يعني نهاية الجماعة... ولكن قل لي: لماذا تفكر في هذا الأمر!؟.

– لماذا طلبوا منا أن نموت تحت التعذيب قبل أن نعترف بحرف واحد!.

قال عادل وهو يبتسم: الأفكار النظرية شيء، والواقع العملي شيء آخر

* * *

توالت العمليات في الخارج، وكانت الأنباء عنها تتوالى باستمرار، بواسطة الإذاعة والجريدة والرسائل المهربة وبعض السجانين. وبالرغم من التفاف الأكثرية حول الثورة والعمل العسكري، إلاّ أن الخلافات لم تتلاش تماماً، وظلت تصدر عن بعض المعتقلين انتقادات لهذا الخط الذي يقود الجماعة والبلد إلى مصير مجهول لا يعلم مداه إلاّ الله... وإن كانوا في الصلاة يدعون للمجاهدين بالثبات والنصر.

وحملت إليه الأخبار نبأ استشهاد أخيه فخر الدين ابن الثمانية عشر ربيعاً ، فتلقى أكبر صدمة في حياته بالصبر والتسليم ، واستشهد صديقه أيمن ، وهو أمر كان يتوقعه ، أما أبو اليسر فقد اعتقل بعد إصابات بالغة فقد فيها عينه وذراعيه ، وقضى في المنفردة بضعة شهور ثم حكم بالإعدام ونال ما يتمناه: الشهادة في سبيل الله.

واشتدت ضربات المجاهدين، وازداد عنف السلطة وشراستها، وبلغت الهجمة الإعلامية أشدها... التلفزيون والإذاعة والجرائد والصحف تشن حملات مكثفة... وفي رسالة مهربة قرأ أحد السجناء:

الشعب كله معكم، بماله ودمه، وإعلام السلطة يتلقاه الناس بالتندر والسخرية والشماتة... فاصبروا، فإن الله معكم، والنصر حليفكم.

* * *

قال الأستاذ فاروق وهو أحد قادة الجماعة بعد عودته من استدعاء مفاجئ:

ذهبت مع الأستاذ عبد الله والتقينا الأخ الأستاذ أمين يكن ، وهو –كما تعلمون– أحد كبار قادة الإخوان السابقين، وهو مكلف من قبل الرئيس نفسه بإجراء وساطة بيننا وبين السلطة.

فقال سجين: لقد انهارت السلطة.

وتابع الأستاذ فاروق: قدمنا خمسة طلبات، هي الحد الأدنى الذي يمكن أن نرضى به، والحد الأعلى الذي يمكن أن تقبل به السلطة... وهي:

1. إصدار عفو عام عن السجناء والملاحقين.
2. إطلاق الحريات السياسية، وحرية الأحزاب.
3. إيقاف التحديات لمشاعر المسلمين في أجهزة الإعلام وممارسات السلطة.

4. إلغاء التمييز والتسلط الطائفي.
5. إعادة المدرسين المبعدين عن التعليم إلى وظائفهم.

ثم تابع: وقد وعدنا خيراً، وعلى هذا الأساس، أمروا بالإفراج عني وعن الأستاذ عبد الله، لتهدئة الأمور في الخارج، على أن تتم عملية الإفراج عن باقي المعتقلين سريعاً.

واستمرت الإفراجات بطيئة، ثم توقفت، وصعّد المجاهدون عملياتهم، أما الذين خرجوا لتهدئة الأمور، فإنهم سرعان ما غادروا البلد. حين فشلت المهمة .

* * *

استمرت المحاكمات..... وفي هذا المساء تم إحضار سبعة عشر معتقلاً، من بينهم محمود، إلى المحكمة...

كانت قاعة المحكمة كبيرة، تتوسطها منصة فخمة، يجلس وسطها القاضي فائز النوري، وحوله أربعة مستشارين، أحدهم برتبة عقيد، وإلى يمينهم المدعي العام، وإلى الأسفل يقف أربعة محامين، يقابل قوس المحكمة إلى اليمين قليلاً قفص وضع فيه السجناء.

بعد قليل صاح القاضي: أمين أصفر.

وقف أمين أمام المنصة، فقال القاضي:

أنت متهم بجرائم عديدة... القتل العمد، وإشعال الفتن، ومحاولة قلب نظام الحكم بالقوة... وفي ملفك اعترافات وقّعت عليها، وكلها تدينك.

فقال أمين: هذا كلام منتزع تحت التعذيب، لا قيمة له في ميزان العدالة، بما في ذلك التوقيع... لقد اعترفت لأنجو من التعذيب، بأشياء لم أفعلها، والمحققون يعرفون ذلك، وبعض عمليات الاغتيال وردت في عدة اعترافات، مما يدل على أن ما بين أيديكم من ملفات واعترافات كذب في كذب.

فرد القاضي بعصبية: لولا التعذيب لم تعترفوا بشيء... هل عندك أقوال أخرى؟.

– وما فائدة الأقوال الأخرى!؟.

– عد إلى مكانك...

ثم صاح: عبد الغني.

ووقف أمامه شاب طويل نحيل وديع لم يبلغ العشرين من عمره فوجه إليه الاتهامات نفسها، فضحك الفتى وقال:

يا سيدي أنا لا علاقة لي بالإخوان، ولا التنظيم ولا أعرف معنى هذه الكلمات، التي سمعتها لأول مرة من أفواه المحققين.

– ولكن إضبارتك تقول بأنك منظم، مشارك في العمليات، وفي حوزتك سلاح...

– أنا لا أدري ما ذا تقول إضبارتي، لأني لم أكتبها، ولم أقرأها... كل ما أعرفه أني وقعت عليها بعد فلقة ساخنة...

– هل من أقوال أخرى!؟.

نعم يا سيدي، فإن كلامي لم ينته بعد، وكنت أود أن أقول، بأنك أنت نفسك لو وضعوك في الفلق أو الدولاب أو تحت لسع الكهرباء؛ لاعترفت بأنك أخ لموشيه ديان.

ضحك الجميع إلاّ القاضي، فقد كان هو الآخر أعور، وقال بعد صمت غير متوقع: لا، لن أعترف بذلك.

واستمر المتهمون بالمثول أمام المحكمة، وتابعوا تنصلهم من التنظيم، وإنكارهم لاعترافاتهم المنتزعة تحت التعذيب، وقال شاب يدعى هيثم: أنا أرفض الكلام إلاّ في محكمة علنية يحضرها من يشاء وخاصة أهلي... أنتم تزعمون بأننا مجرمون، فلماذا تخافون من محاكمتنا علناً ليرى الناس صدق ادعائكم!؟.

قال القاضي: المحكمة علنية. انظر إلى الحاضرين، إنهم يتجاوزون الخمسين رجلاً.

– إنهم جنودكم وأعوانكم وحراسكم والسجانون! نحن نريد جمهوراً من الناس العاديين، وأولهم أهلنا.

– عد إلى مكانك إذن.

ثم صاح: صدِّيق.

وتلا عليه موجز ملفه، وهو الاتهامات ذاتها الموجهة لكل معتقل، فقال صديق: هذه ليست محكمة، هذه تمثيلية.. مسرحية.. والأحكام جاهزة، والكلام لا معنى له.

– عد إلى مكانك.

ثم صاح: محمود نعيم .

– حاضر.

وتلا عليه لائحة الاتهام ذاتها.

فقال محمود: أيمكن أن أتكلم براحتي؟.

– بالتأكيد.

– أنا عنصر في جماعة الإخوان منذ سبع سنوات، ورغم أن والدي –رحمه الله– كان من الإخوان، إلاّ أنني اخترت دربي بعيداً عن تأثيره، فقبل ذلك انتسبت إلى شبيبة الثورة، وأصبحت رفيقاً، فرأيت هناك الانتهازية والعبث واللاأخلاقية، وأنا إنسان لا أستطيع الكذب على نفسي ولا على الآخرين، فتركت الشبيبة، واطلعت على فكر الإخوان ودرسته فاقتنعت به، والتزمت بالجماعة، وأنا أعرف سلفاً ما يكمن في طريقي،

وأنا على استعداد لدفع الثمن ولو كان أعصابي وحياتي، وأنا غير نادم على اختياري... كانت حياتي عادية جداً ، إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم، فمن غير توقع، وحين كنت أتقدم للامتحانات في الجامعة، انتهك رجال الأمن –كالعادة– حرمة الجامعة، واقتادوني إلى سجن أمن الدولة، وهناك... لم أكن أتصور أن الإنسان مهما انحط وأسفَّ يمكن أن يصل إلى ذلك الدرْك السافل الذي لا يمكن أن تصل إليه وحوش غابات الكونغو...كان التعذيب غاية في الشراسة والتمتع بهتك قيم الإنسان، فإذا كان في هذا المجتمع مجرمون، فأولئك هم المجرمون الحقيقيون، فحاكموهم بدلاً من أن تحاكمونا.

كان يتصور أن القاضي سينفجر غضباً، ولكنه فوجئ بإنصات شديد من الحاضرين، وبارتياح بدا في وجوههم، وقال القاضي بهدوء: ولكنك متصل ببعض المسلحين.

أجاب: صلة صداقة قديمة، لا صلة تنظيم... لم أمارس العنف، ولو كنت مقتنعاً به لمارسته، ولما وجدتني أمامك الآن، وأنا لا أقول هذا خوفاً منك ، فأنا لا أخاف منك ولا من غيرك، ولكنها الحقيقة.

– وفكرة الهجوم على أمن الدولة!؟.

– كانت مجرد كلام... صرخة في وجه الظلم والعجز.. كل الناس يصرخون، وينتقدون بعنف.. وأنتم تعرفون ذلك... ولا يوجد قانون في العالم يحاسب الإنسان على شوارد فكره، أو فلتة لسان في ساعة غيظ وقهر... إلاّ إذا كان هذا القانون موجوداً هنا!.

– لا، أبداً.

– اتفقنا إذن.

ابتسم القاضي وقال: أتحب أن تضيف شيئاً؟.

– كان في جعبتي الكثير، ولكني أكتفي بأن أقول لكم: إن هذه الأرض إسلامية، فتحها المسلمون بدمائهم، ولن يقبل أحد بأن تصبح الدعوة إلى الإسلام فيها جريمة، أو النشاط الإسلامي تطرفاً، وأختم كلامي بقول شيخ الإسلام ابن تيميه –رحمه الله– : ما يصنع أعدائي بي –وأرجو أن لا تضعوا أنفسكم في موطن العداء لي– أنا جنتي وبستاني في صدري ، سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة... وبالنسبة لي فالحكم بالإعدام أو السجن المؤبد أو البراءة، كلها سواء، ولكنها مسئوليتكم، ولا تنسوا أنكم ستقفون يوماً بين يدي الله، شئتم أم أبيتم، فحاولوا إنقاذ أنفسكم.

ساد صمت وتأثر بعد تلك الكلمات... لأول مرة منذ دخل السجن، أحس بقوة الحق، وجلاله، وهيبته، وروعة التحرر من الخوف... ورأى بعينيه ثمرة ذلك: الإكبار، والإعجاب من الجميع... أمر لم يكن في حسبانه... قال القاضي وهو يهز رأسه:

– عد إلى مكانك.

كل شيء تغير في المحكمة، وكل نفس تفاعلت مع الموقف بشكل أو بآخر، الإخوة المنكمشون على أنفسهم أحسوا بقوتهم ورفعوا رؤوسهم عالياً... القاضي ومن معه وعناصر الأمن أحسوا بصدقه واحترموه كانت العيون الشاخصة إليه، تفصح عما في الصدور من غبطة وإعجاب واقتناع.

انتهت الجلسة، وأعيد السجناء إلى السجن...

وفي المهجع الخامس، اجتمع سجناء المهجعين يستمعون إلى تفاصيل جلسة المحكمة، وكان القادمون يتحدثون عن موقفه باعتزاز، فانكمش على نفسه حياء، وخرج إلى المطبخ يتشاغل حتى انتهى الحديث عنه.

* * *

ظهرت شخصية جديدة بين السجانين... الرقيب طاهر، مجند شاب يؤدي الخدمة الإلزامية ،أقرب ما يكون إلى الطول والامتلاء والوسامة، هو ابن أخ الرائد حسن رئيس الفرع... انضم إلى مجموعة السجانين وكان رئيس نوبة... شهد السجن في أيامه انفراجاً كبيراً... وكان يغض الطرف عن الكثير مما يهرّب للسجناء، بل كان يقوم هو أحياناً بتهريب الكتب والمعلومات من السجن وإليه. وبالغ في تعاطفه مع المعتقلين، حتى داخل معظمهم الريب في سلوكه... وقال أحدهم: لا بد أنه مدسوس علينا.

فأجابه آخر: ملامحه، وحركاته، واضطرابه عند تقديم مساعدة، توحي بأنه رجل طيب.

– الحذر واجب.

– كلامك معقول.

أحياناً كان يصلي معهم الجماعة.. حقاً إن أمره مريب!؟.

ثم بدأ في بعض الليالي يستدعي واحداً من السجناء، يختاره في نوبته، ويسهر معه بعد منتصف الليل، حيث ينام السجانون، ويتحدثان في كل موضوع... وقد اختار جلساءه من الكبار والصغار، واطمأن أكثر من سهر معه وحدثه إلى صدقه، ووثق به، ولكن هذا السلوك جعل الجدل يشتد حوله:

– لا ريب أنه مدسوس.

– بل إنه متعاطف وطيب.

– الله وحده يعلم حقيقته.

وتعرض طاهر لمراقبة شديدة، واختبارات قاسية من السجناء دون أن يدري، كلفوه بمهمات خطرة فأداها، ولكن الجدل ازداد بشأنه.

– هذه أمور لا يفعلها إلا مدسوس.

– أو رجل من الإخوان.

– أيمكن أن يكون من الإخوان!؟.

– ربما كان متعاطفاً.

– مستحيل.

– بل ممكن... ممكن جداً.

وكان قد وقع اختياره على محمود ذات ليلة، وتكرر اللقاء أكثر من مرة، وقال طاهر: الحوار معك متعة حقيقية.

– شكراً هذا من لطفك.

– بل هو الواقع.

انتهز الفرصة ليسأله : ما رأيك بالإخوان!؟.

– شباب طيبون.

وكان يفكر في إثارة موضوع معه، فقال:

– هل يستحقون السجن؟.

– لا.

قال وهو يبتسم:

– لماذا لا تقوم بعمل في سبيل الله.

– مثل ماذا!؟.

وبين الجد والمزاح قال له:

– تهريب السجناء...

ولم ينفعل طاهر، بل رد ببرود وهو يبتسم: هذه مفاتيح السجن، خذها، واهربوا.

– هذا مستحيل... لا بد من خطة.

ابتسم طاهر، وسرح بعيداً ، وقال: حسناً ، ضعوا الخطة التي تريدون ، وأنا جاهز.

في الصباح قال محمود لعادل: لقد طرحت على طاهر فكرة الهرب من السجن، فكان رد فعله غريباً... يبدو أنه يقبل الإقدام على عمل من هذا النوع!.

ابتسم عادل بهدوء، وقال: هناك طبخة على النار أوشكت أن تنضج، فدع الأمر سراً.

– عدنا إلى السرية من جديد!.

– أمر لا مفر منه، كما ترى..!

-10 -

كان الاستدعاء إلى المحكمة مختلفاً هذه المرة، فقد جرت العادة أن يؤخذ السجناء على دفعات، والآن يستدعى السبعة عشر سجيناً من المهجعين الخامس والسادس. إضافة إلى الذين نقلوا إلى سجن القلعة من المهجع الثاني... وقال سجان: استعدوا للنقل إلى سجن آخر.

وكانت ساعة عناق ووداع بين الراحلين والباقين، وكانت عبرات وغصص وشد على الأيدي، ودعاء بالتأييد والثبات. وكلمات مفعمة بفيض عارم من المشاعر الإنسانية..

وبقدر ما كان وداع هؤلاء حزيناً، بقدر ما كان لقاء الآخرين حاراً. وإذا كان الوداع فاجعاً، فها هو ذا لقاء بهيج يعقبه تواً...إنها الحياة.. حزن ومسرة.. أو مسرة وحزن.. يتعاقبان طوراً، ويمتزجان أحياناً.

في المحكمة كانت الجلسة قصيرة جداً، ابتدأت وانتهت بكلام المدعي العام، الذي عاد وكرر التهم نفسها التي رددها القاضي من قبل، وطلب من رئيس المحكمة إنزال أقسى عقوبة بأولئك السجناء جميعاً.

وفي غرفة الانتظار، قال محمود لأحد أصدقائه الذين وجدوا أنفسهم في السجن دون أن يكون لهم علاقة بتنظيم:

إني متفائل جداً بأنكم ستخرجون براءة، وتستأنفون حياتكم من جديد، ونحن ندعو لكم بالتوفيق، فادعوا لنا بالرحمات... وتابع باسماً: ولكن إياكم والسياسة...

ضحك الجميع، وقال الرجل: لا يا شيخ، لقد دخلت السياسة عظامنا بعد الاختلاط بالإخوان...

– والشباب، كيف نفسياتهم!؟.

– كلهم بخير، لقد تغير الجميع تماماً، وما عادوا يهابون شيئاً، لقد نذرنا أرواحنا في سبيل الله.

– إنه تطور خطير، لكنه طيب...

* * *

أعيد السجناء إلى سجنهم نفسه، وتكرر لقاء حار مع الذين ودعوهم قبل ساعتين، وكان فرح غامر، مثلما يفرح المرء بشيء ثمين فقده فجأة ووجده فجأة.

قال أحد السجناء: لقد أصبحنا أسرة واحدة... ثم تابع متأثراً: أنتم أصدقائي وحاضري ومستقبلي.

وقال آخر: أرجو الله ألاّ نفترق حتى الفرج الشامل أو الشهادة.

وتوالت الأنباء عن مجازر ارتكبتها السلطة في كثير من المدن والقرى، وكانت وسائل الإعلام تردد: أوضاعنا الداخلية مستقرة، وسجوننا جدرانها بيضاء، لا يدخلها إلاّ المجرمون... وفي الوقت نفسه تشن الحملات على بعض الأنظمة التي امتلأت سجونها بالأبرياء المنكوبين والقتل الجماعي.

ولم يجد السجناء مخرجاً من ذلك المأزق، إلاّ بالحديث عن الهرب.

وقال محمود: مهما تكن الوسيلة والنتيجة، فلا بد من الهرب.

وتساءل في نفسه: أهو أمر ممكن!؟ أم هوتعبير عن اليأس!؟.

* * *

انطلق مندفعاً كالسهم من باب السجن... والسور الذي كان يبلغ ارتفاعه مترين، لم يكن من الصعب عليه أن يقفز من فوقه بعدما وصل إلى لياقة بدنية عالية بعمل تدريبات شاقة في الشهرين الماضيين، وتبعه السجانون والحراس في الخارج، ولكنه لم يكترث، أمروه بالتوقف فأمعن في طريقه، أطلقوا عليه النار من كل مكان، فلم يكن يبالي من أين يعبر الرصاص، وقطع الشارع الخارجي من بين السيارات، وظل يجري مسرعاً، وهم يركضون وراءه، والمسافة بينه وبينهم تتسع... أوقف سيارة أجرة، وقال للسائق: انطلق بأسرع ما تستطيع، وفي مكان مزدحم فتح الباب وهرب، واختار شارعاً جانبياً فاتجه نحوه، وراح يدخل في أحياء وأزقة متشعبة، حتى اطمأن إلى أنه غاب عن عيونهم، وأنهم لن يدركوه، وقال في نفسه: البحث عن مأوى لن يكون صعباً هنا، فعندي الكثير من الأصدقاء، وظل ماشياً بحذر واطمئنان ونشوة، حتى ربت شخص ما على كتفه، فاجتاحه ذعر مفاجئ، وحاول أن يتبين ملامحه بلا جدوى، فصاح: من!؟ وسمع صوتاً يقول له: محمود.. محمود.. قم، فقد اقترب الفجر.

ونهض فوجد الأستاذ عادل يوقظه للوضوء والصلاة.

فلما قص عليه ما رأى في الحلم، قال عادل: فأل خير إن شاء الله.

وقال آخر: إنه انعكاس لأحلام وهموم.

وقال ثالث: أضغاث أحلام نرجو أن تتحول إلى واقع.

وأردف محمود: لقد بدأ يعاودني هذا الحلم كثيراً، مع اختلاف في الجزئيات والتفاصيل... ولكنني أنجو دائماً، وأحياناً أجدني ملتحقاً بالمجاهدين.

– إنك دائم التفكير في هذا الأمر.

الشيء الجديد المثير كان في تعدد اللقاءات بين السجان الرقيب طاهر ، وكل من أمين أصفر وعدنان شيخوني... ، كانت اللقاءات شبه سرية ، تتم في المطبخ ، دون أن يعلم بقية السجناء بتفاصيل ما يدور فيها ، إلا التخمين بأن هناك خطة للهرب.

* * *

بعد يومين وقفوا جميعاً في قفص المحكمة، ومعهم الشيخ محمد خير الذي أُحضر من سجن القلعة، وكان هناك أربعة محامين، يتكلمون بالتناوب، يتناول كل منهم عدداً من القضايا، وكان محامي الدفاع عن محمود نعيم والشيخ محمد خير رجلاً في متوسط العمر يدعى المهلب الصالح، فلما تكلم أنشأ يخطب خطبة طويلة، يتلوها صفحة بعد صفحة لمدة ثلث الساعة، وقد ظهر الامتعاض في وجوه الحاضرين بدءاً

من القاضي وانتهاءً بالسجناء، فقد أشاد المحامي في مرافعته بالسيد الرئيس، وأطنب له في المديح، ونبه إلى أنه الرجل الصلب الوحيد في المنطقة، الذي يتصدى للإمبريالية الأمريكية ومخططاتها، وللصهيونية العالمية وأهدافها، ولعملاء كامب ديفيد من العرب، وأن تلك القوى الرهيبة العالمية، لما عجزت عن مواجهة الرئيس المناضل البطل، فإنها قامت بتسخير الدين الإسلامي الحنيف، واستئجار قيادات عميلة، واستغلال حماسة الشباب المسلم، وتوريطهم في عصابات مسلحة دموية هدفها التخريب والفتن والقضاء على الثورة الرائدة وقائدها المظفر... وختم خطابه بقوله: ولأن هؤلاء الشباب –يا سيدي القاضي، ويا حضرات المستشارين المحترمين– شباب مغرر بهم، فأنا ألتمس لهم من عدالتكم الموقرة تخفيف العقوبات عنهم إلى أدنى حد يسمح به القانون.

وشب حريق في القفص... حريق سرى في دم كل سجين. فرفع الشيخ محمد خير يده طالباً الإذن له بالكلام، وأشار له القاضي بالموافقة، فقال:

أيها السادة، كيف يدافع عنا محامٍ لا نعرفه ولا يعرفنا، ولم يلتق بنا، ولم يستمع إلينا!؟.

وأردف بسخرية: ثم لو أنه اتصل بنا لكنا أعطيناه أجره ليقوم بواجبه على نحو أفضل.

وقال محمود: أشكر السيد محامي الدفاع على خطبته الحماسية، وإن كنت أتمنى لو أنه أعفى نفسه وأعفانا من سماعها، لأن أقل ما يقال فيها: إنها كلام جرائد وإذاعة، مما لم يعد له تأثير في هذه الأيام، بل أصبح الناس يمجّونه... ثم إن حضرة المحامي وقف يدافع عن الرئيس مع أنه غير متهم هنا، وكان الأولى به أن يدافع عن موكليه دفاعاً مناسباً... أما عن دفاعه الذي تقدم به، فأنا أرفضه... ونحن – والحمد لله– مسلمون واعون مختارون طريقنا على بصيرة، ولسنا مضللين ولا مخدوعين ولا أغراراً.

قال المحامي مباشرة، وهو يتلقى نظرة شماتة من القاضي: أنا أسحب دفاعي عن هؤلاء.

وصاح القاضي: رفعت الجلسة.

* * *

قال محمود لعادل في الطريق إلى السجن: الأحكام ستصدر في الجلسة القادمة حسب كلام القاضي، وأنا موطن نفسي لأقسى الأحكام، ولكن شعوراً داخلياً يحدثني عن فرج قريب... لا أدري لماذا!؟ مجرد إحساس أرجو أن لا يكون كاذباً...

رد عادل وهو يهز رأسه: الأمر لله من قبل ومن بعد.

وأردف محمود: الإعدام شهادة، والسجن المؤبد لن يضير؛ لأن الظلم لا يعيش طويلاً، والحكم بخمس سنوات يمنحنا الفرصة لحفظ القرآن الكريم ومجموعة طيبة من الأحاديث النبوية، وإذا خرجنا من السجن بعد سنة من دخوله، نكون قد خرجنا بتجربة جيدة في الحياة.

ابتسم عادل، وهز رأسه علامة الموافقة، دون أن ينبس ببنت شفه.

مضى عليه في السجن أحد عشر شهراً... في هذه الليلة فوجئ الجميع باضطراب شديد وضوضاء وجلبة في حركات السجانين وأصواتهم، كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً، حين فتح الباب سجان يقول:

– جهزوا أمتعتكم وأغراضكم جميعاً.

– لماذا!؟.

– لا نعلم.

قال سجين: إما أن هناك مجزرة جماعية تنتظرنا، أو أن انقلاباً قد حصل وسيكون الإفراج عنا هو البلاغ رقم 2.

مضت أربع ساعات في انتظار مبهم، وتحليلات متناقضة، وتخمينات بلا أساس، وأخيراً، قال السجان: ستنتقلون إلى سجن القلعة .

سرت موجة من تفاؤل بين السجناء، وقال عادل : إنه أرحم وأفضل من هذا السجن.

وراحوا ينادون السجناء بأسمائهم حتى بلغ العدد ما يربو على الأربعين منهم، وبقي في المهجعين الخامس والسادس سبعة عشر سجيناً هم الذين سيخضعون للمحاكمة.

وكان وداع شكلي، سريع، لأن الباقين ظنوا بأنهم سيلحقون بإخوانهم بعد قليل... ولكن ذلك لم يتم، فبعد ساعات قال سجان:

– فكوا أمتعتكم فأنتم باقون هنا...

سأله عادل:

– ألن ننتقل معهم!؟.

– لا.

– غير معقول.

– هذه هي الأوامر.

– والشباب أين ذهبوا بهم!؟.

– لا أدرى.

في المساء جاء طاهر مكفهر الوجه، بادي العبوس، تنطق عيناه بالقهر والألم... سأله محمود:

– خير إن شاء الله، ما الأمر!؟.

أجاب بلسان مثقل بالكارثة:

– لقد صار الشباب في سجن تدمر .

– السجن الصحراوي الرهيب!؟.

– نعم.

وأحس كل سجين بأن صاعقة قد نزلت برأسه.

– 11 –

بدأت الأمور تجري على نحو مثير...

كان اليوم هو السبت، وقد بدا الرقيب السجان طاهر قلقاً ... قال لمحمود:

إنها فرصتكم الأخيرة... فأنتم أمام احتمالين: إما أن يذهبوا بكم إلى السجن الصحراوي قريباً، أو أن تذهبوا مساء الأربعاء إلى المحكمة لتلقي أقسى الأحكام... وعند صدور الحكم، فلن تعودوا إلى هنا، بل ستنقلون مباشرة إلى سجن آخر... وفي كلتا الحالتين فإن فرصة تحرركم تكون قد أفلتت منا...أمامنا أيام معدودة فقط

بعد ساعة ، وفي لقاء طويل مع أمين ، قال طاهر: موعدنا يوم الاثنين

قال أمين: نحن مستعدون..

وقال طاهر: والشباب الذين سيتولون إيواءكم في الخارج مستعدون...

كانت الخطة مرسومة بدقة، وجاهزة للتنفيذ تماماً وكل سجين عرف دوره المحدد...

في مساء الاثنين جلس الرقيب طاهر أمام باب السجن مع السجانين الأربعة: أبو محمد وأبوشهاب، وسعدون، وفواز...

قام طاهر وجهز إبريقاً من مشروب (الميلو) بالحليب... ووضع فيه المخدر... قدمه إليهم احتفاءً بخطوبته كما قال...

عاد طاهر يقول لأمين: شرب اثنان منهم الشراب: أبو شهاب وسعدون، ولم يسغه أبو محمد ولا فواز...

وتابع: أما أبو محمد، فإنه عادة ما يذهب ويبيت في بيته... إنه رب أسرة، ونحن نغطي غيابه... وأما فواز فهو مصيبة.

قال أمين : نعتقله!؟

أجابه طاهر: الأمر صعب جداً ... لو صرخ صوتاً واحداً لنبه الآخرين، وأفسد عملنا... وانتهينا جميعاً إلى الموت...

مرت نصف الساعة من القلق والحيرة... مشكلة لا حل لها... أمر لم يكن بالحسبان...

كان السجناء صائمين... أذن المغرب فأفطروا، ودعوا الله باضطرار... بعد قليل حدث ما يشبه المعجزة..

كان القدر يقول كلمته بوضوح حين جاء فواز يطلب الدكتور مالك...

أجابه الدكتور: نعم ؟.

فواز: لا بد أن لديك حبة للصداع... أحس بصداع برأسي...

هز الدكتور مالك رأسه: بالتأكيد... لكني الآن أقوم بتنظيف الأطباق. عد إلي بعد خمس دقائق...

عاد فواز بعد خمس دقائق... كان الدكتور قد حشا له المخدر في كبسولة عادية بعد ما أفرغها من محتواها الأصلي... تناول فواز حبة الدواء وعاد بعد قليل يقول للدكتور:

– أحس بثقل في رأسي...

– استرح قليلاً في السرير... وحاول الإغفاء لساعة أو ساعتين، وحين تصحو، ستجد الأمور على ما يرام...

في العاشرة ليلاً كان أبو محمد ينسل من السجن إلى بيته، والسجانون الثلاثة الآخرون: فواز وسعدون وأبوشهاب يغطون في نوم عميق...

في الثانية عشر ليلا بدأ تنفيذ الخطة التي رسمت بإحكام بالغ.. اتصل طاهر بفرع الحلبوني .

– ألو..

– نعم.

– أبو أحمد موجود؟.

– تفضل..

تناول المساعد أبو أحمد، مدير الفرع الهاتف:

– نعم..

– أنا طاهر..

– أهلاً بك..

– لدي مريض...

– دعه إلى الصباح.

– حالتة خطيرة.. إنه في حالة إغماء تام.. وتشنج... و..

– طاهر.. الوقت منتصف الليل... دعه إلى الصباح...

– كما تريد... لكني أكون قد أخليت مسئوليتي...

حين سمع أبو أحمد بالمسؤولية انتفض قائلاً:

– كما تريد... لكني.. آه... طيب... حسناً... إذا كنت ترى الأمر خطيراً إلى هذا الحد، فسأرسل لك السيارة حالاً... لكن انتبه.. كن يقظاً، ورافقه بنفسك إلى المستشفى..

– حاضر.

بعد نصف الساعة كانت سيارة الجيب تجتاز البوابة الرئيسية للمبنى، لتقف أمام باب السجن...طلب طاهر من العنصرين القادمين أن يساعداه في حمل السجين إلى السيارة... دخل العنصران بحذر وتردد... سارا في الممر الضيق الذي يفضي في نهايته إلى باب المهجع الثالث حيث يتمدد المريض...بينما كان ثلاثة سجناء يتسللون من خلفهم قادمين من المهجع المقابل في لباس النوم، في هيئة المتطفلين على ما يجري ...أصبح العنصران بين فكي كماشة...نادى أحدهم بالسجناء من خلفه: عودوا إلى أماكنكم ...في لمح البصر انقض اثنان من السجناء على العنصرين حيث تم اعتقالهما وتقييدهما وإدخالهما إلى المهجع وحقنهما بالمخدر... وفي دقيقة واحدة بدل السجناء ملابسهم وخرجوا بترتيب ونظام من باب السجن، كأنهم ذاهبون في استدعاء للتحقيق...وحدثت أخطاء قاتلة وأخطاء مضحكة في تلك اللحظات ، ولكن الله سلّم.

لم يكن المشهد عادياً بالنسبة للعناصر الآخرين المرابطين عند البوابة الخارجية والذين لا يبعدون أكثر من خمسين متراً عن باب السجن...لكنهم بدوا ذاهلين مسلوبي التفكير والإرادة ...مرة أخرى القدر يقول كلمته بوضوح..

انطلقت السيارة تنوء بضعف حمولتها باتجاه البوابة الرئيسية...

وجه الرقيب طاهر المعروف جيداً هو الذي جعلهم يفتحون البوابة أمام السيارة لتخرج، دون أن يكون لديهم الظن أو الوقت لملاحظة أن العنصرين الذين دخلا لم يخرجا وإنما خرج مكانهما سجينان، أحدهما يقود السيارة والآخر إلى جانبه، وطاهر إلى اليمين من جهة النافذة...أما في الكبين الخلفي المغلق فقد تكدس خمسة عشر سجيناً؟!

ما إن خرجت السيارة من باب السجن حتى شرع بعض السجناء بالتكبير... وتم إسكاتهم بسرعة.. انطلقت السيارة في شوارع العاصمة، تتجاوز حتى إشارات المرور الحمراء... وفي أماكن محددة كان بعض الإخوة ينتظرون بسياراتهم في الظلام... ترك السجناء الهاربون سيارة الجيب، وانتقلوا إلى السيارات الأخرى الخاصة التي ذهبت بكل مجموعة إلى مخبأ جاهز أمين...

قبل أذان الفجر، كان محمود وأصحابه مختبئين في بيت في إحدى ضواحي العاصمة، في يقظة تامة، يصلون التهجد... يطيلون السجود... يحمدون الله من أعماق قلوبهم... في تلك الليلة التي لم يعرفوا النوم فيها من شدة الفرح ...نهاية أغرب من الخيال...

أذن الصبح، فصلوا الفجر... وقرؤوا الأدعية المأثورة، وشيئاً من القرآن الكريم...

قال عادل: لقد منّ الله علينا بالفرج من حيث لا نحتسب... وهيأ لنا الأسباب المؤدية إليه: السجان طاهر... والإخوة الذين تكرموا بإيوائنا، من غير أن يكون بيننا وبينهم سابق معرفة، مع ما في الأمر من خطر عظيم عليهم...فلنحمد الله أولاً، ولندع لمن بقي من إخواننا بالفرج العاجل... ستكون أمورنا على ما يرام بإذن الله.

وقال آخر: لقد طويت صفحة السجن... وفتحت صفحة جديدة... ما الذي يجب عمله الآن، وما الذي يمكن أن نفعله؟ نلتحق بالمجاهدين!؟ أم نخرج من البلد!؟.

أجاب عادل: سيكون لدينا وقت متسع للحديث في هذه الأمور، بعد تناول الفطور إن شاء الله.

وقال آخر لمحمود: يجب أن تكتب قصة السجن وعذابنا فيه، وقصة الهرب وعجائب اللطف الرباني فيها... هذه أمور يجب أن لا تضيع.. يجب أن يعرفها الناس..

أجاب محمود: يكفي أن رب الناس يعلمها جيداً... ومع ذلك، فأنا أشاطرك الرأي... سأكتب... سأكتب إن شاء الله، إن كان في الأجل بقية.

وقاموا يعدون الفطور وهم يتنسمون لأول مرة –منذ عام– أنسام الحرية...

قال محمود وهو يحمل إبريق الشاي في يد، وطبق الزيتون في يد أخرى: حقاً إن الحرية هي الحياة. أما هذه السجون فهي أسوأ اختراع بشري ، وستظل وصمة عار في وجه الإنسانية حتى تسوّى بالتراب.

* * *

في ضحى اليوم التالي، كانت أم محمود تدخل إدارة الفرع من أجل زيارة ابنها... وكانت تحمل – كعادتها– ما صنعته بيديها من أشهى أنواع الأطعمة...وكان يسود المكان القلق والتوتر والحركة العصبية ، وكأن القيامة قامت... حينما اقتربت من البوابة الرئيسية سألها أحد العناصر:

– نعم؟.

– أريد زيارة ابني..

– الزيارة ممنوعة..

– كيف... لقد قطعت مسافة بعيدة حتى وصلت إلى هنا..

– قلت لك: الزيارة ممنوعة..

– عندي موعد سابق منذ شهرين.

– ممنوع.

– الله يرضى عليك يا ابني... دعني أكلم المسؤول..

– ممنوع.

أحست بضيق شديد... تمتمت: إنا لله وإنا إليه راجعون... ثم اقتربت وقالت:

– طيب... إذن أوصلوا له هذه الأغراض..

– ممنوع دخول الأغراض..

– إنها بعض أطباق الطعام...

– ممنوع.

– حتى الطعام ممنوع!؟ ما الذي جرى.. أخبرني يا ابني..

في هذه الأثناء كان ضابط برتبة ملازم يمر... شاهد الموقف.. نادى عليها:

– نعم... ماذا تريد الحاجة!؟.

– زيارة...

– الزيارة ممنوعة الآن..

– عندي موعد..

– حتى ولو...

– حتى متى..!؟.

– حتى إشعار آخر..

عادت تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون... وحملت ما معها من متاع، وأدارت ظهرها، وجرّت ولديها، وهمت بالانصراف...

نادى الضابط عليها:

– يا حاجة...

– نعم...

– تعالي ما اسم ابنك!؟.

– محمود نعيم .

تغير لونه فجأة...

قالت:

– خير..؟!

اقترب منها، وهمس بتردد:

اذهبي من هنا حالاً... انجي بنفسك وولديك...

– خير...؟!

– ابنك هرب أمس من السجن، مع عدد من أصحابه...

لم تدعه ينتهي من حديثه... أدارت ظهرها وانصرفت، استقلت أول سيارة أجرة مرت بها... كأنها هي الأخرى هاربة من سجن... أحست بفرح لا يوصف، وبقلق كبير... بدأ قلبها يدق بسرعة... ضمت ولديها إليها بحنان كبير... كأنها تخاف أن يفلتا منها... وعادت مسافرة إلى المدينة... وهي تقول في سرها:

أرجو الله الذي فرّج عنه أن يجمعني به، لتقر عيناي بلقائه...

وذلك ما كان...

* * *

انتهت،،،

الحياة في ظلال القرآن 2

(إياك نعبد وإياك نستعين)

صور من حياة الرسول

ماذا يريد الإمام البنا من الإخوان

وعجلت إليك ربي لترضى